جامعة عبد الرحمن ميرة - بجاية –

كلية الآداب و اللغات

قسم اللغة و الأدب العربي

تخصص :أدب جزائري

العنوان

الثورة الجزائرية و حضورها في الرواية الجزائرية

رواية "الانطباع الأخير" لمالك حداد أنموذجا

مذكرة مقدمة لاستكمال شهادة الماستر

إعداد الطالبتين:

حموش هدى

مجوج فيروز

إشراف الأستاذ الدكتور:

رفرافي بلقاسم

السنة الجامعية:2014-2015

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

« رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَ هَبْ لَنَا

مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ »

آل عمران (08)

صدق الله العظيم

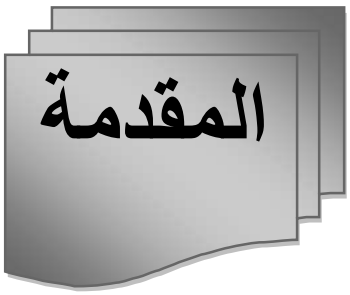
المقدمة

الإهداء

إلى من أوحت في ذاتي البقاء وأوثقت كياني لبنات البناء

والدتي العزيزة أطال الله عمرها

إلى دفء وجودي وسند ارتقائي وتاج رأسي وعزة سعادتي

والدي العزيز أطال الله عمره

إلى من قاسمني لذة الحياة بحلوها ومرها بفرحها وحزنها

إخوتي وأخواتي

إلى كل خيوط الوصال أهلي وأقاربي

إلى من غمرنني بحبهن صديقاتي

وبالأخص هدى

فيروز

الإهداء

أحمد الله الرحمان الذي خلق الإنسان وعلمه البيان وهداه إلى سبيل الخير بعد الضلال والصلاة على سيدنا محمد خير الأنام وبعد.

أهدي ثمرة جهدي إلى من قال فيهما الرحمان "وقضى ربك آن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا"

إلى من علمتني معنى الحنان ومنحتني روح التحدي والمثابرة وعانت مشقة رعايتي إليك "يا أمي الحبيبة ".

إلى من أضاء دربي حياتي وكافح بالغالي والنفيس لأجل أن يراني أسير على درب العلم والمعرفة إليك "يا أبي العزيز" .

إلى من تقاسموا معي أفراحي وأحزاني وعلى المحبة والتعاون اجتمعت بهم إخوتي الأعزاء وأخص بذكر أختي ليديا ينبوع الوفاء وصانعة الأفراح وإلى ثمرة وبهجة المنزل وداد .

والى كل من ساهم من قريب أو بعيد في انجاز هذا البحث وأحاطني بالتشجيع والاستمرار ولو بكلمة طيبة .

إلى رفيقة الدرب ونبع الصداقة التي غمرتني بلطفها فيروز.

إلى كل من عرفتهم خلال مشوار حياتي وتذكرهم قلبي وصاحبوا مسيرتي.

إلى كل من اختار العلم وترك الجهل وأنار الدرب بمصابيح العلم وحافظ على هذا العمل المتواضع.

هدى

المقدمة

لقد كانت الثورة التحريرية (1954-1962) حدثا مميزا، قلّب كثيرا من الموازين و المفاهيم،وأعطى لشعوب العالم درساً في الكرامة والوفاء، وأظهر الاحتلال الفرنسي على حقيقته، وإذا كان جيل الأدباء السابقين للثورة التحررية، دعا إلى حب الوطن والموت في سبيل نيل الحرية، فإن الأدباء الجزائريين الذين عاشوا الاستقلال، وحتى جيل اليوم لم يستطع هؤلاء جميعاً أن يتجاوزوا حدث الثورة، فقد بسطت الثورة ظلالها على هذه الأقلام المبدعة، فأنتجت أدباً و شعرًا و قصة و رواية ومسرحية، تستمد أحداثها من عظمة و معجزات هذه الثورة المباركة. وإن كنّا نجزم أن ما قُدم يبقى دون عبقرية الشعب و الثورة الجزائرية، التي ستبقى خزانا يمدنا بالعطاء و الإبداع.

وإذا كان دور أديب ما قبل الثورة يهدف إلى بث روح المقاومة في الشعب، وربطه بتاريخ وطنه فان دور أديب مرحلة الثورة لا يقل أهمية و التزاما عن الدور السابق، و ذلك في تجنيد الجزائريين و تشجيعهم على مواصلة الكفاح، و حتى جيل اليوم من الأدباء لم يستطع أن يتجاوز أحداث الثورة الكبرى بل نراه يوظفها في كل أعماله الأدبية، مما يدل على الارتباط الوثيق ببطولات الأحداث و عبقريتهم .

لقد كان من الطبيعي أن يقف الأدباء على وجه الخصوص و المثقفين بشكل عام إلى جانب الثورة الحريرية منذ بدايتها و حتى النهاية، فهم الذين عاشوا الفقر والاضطهاد، فأصبحت حياتهم بلا معنى ويبقى أملهم الوحيد تحقيق ذواتهم في ثورة نوفمبر.

وإذا كانت دوافع البحث العلمي قد فرضت بحثنا هذا، فإن من وراء تلك الدوافع الرغبة في اكتساب المعرفة العلمية من جهة و الاطلاع على تاريخ الجزائر من خلال ثورتها المجيدة و تغذية الفكر بمعلومات ثقافية مفيدة، تساهم بشكل أو بأخر في إثراء الرصيد الثقافي و الأدبي بشكل خاص، ومن هذا المنطلق اِرتأينا أن تكون دراستنا حول الثورة و حضورها في الرواية الجزائرية .

أما أسباب اِختيارنا للرواية، فيعود إلى اِهتمامنا بالرواية المكتوبة باللغة الفرنسية من جهة، ومن جهة أخرى كونها أول رواية تصور وقائع الثورة التحررية، بما فيها من كفاح، فجسدت الثورة التحررية في مضامينها، و تعاملت مع الموضوع بأبعاد مختلفة. وقد اِخترنا نموذج الدراسة بعد صعوبة لتعدد الروايات التي تناولت موضوع الثورة الجزائرية، فاخترنا رواية "الانطباع الأخير" لمالك حداد لارتباطها الوثيق بالثورة و القضية الجزائرية بصفة عامة.

وتبحث الدراسة في آليات التعامل مع موضوع الثورة التحررية في العمل الروائي باعتبارها الحدث البارز في مضامين الرواية، وذلك من خلال دراسة الشخصيات و فضاء الرواية بالإضافة إلى اللغة و الأسلوب الذي اعتمد عليه الكاتب.

إذْ هناك أسباب متعددة تدفع الروائيين إلى توظيف الثورة في موضوعاتهم وذلك ضمن تمجيدها، و الكشف عن التناقضات والحقائق التاريخية التي رافقت الثورة.

وقد اعتمدنا على المنهج الوصفي التحليلي، للوقوف على صورة الثورة في الرواية الجزائرية و إبداء الرأي فيما جاء فيها، آملينا أن نكون قد وُفقنا ولو قليلا في الكشف عن جانب من جوانب التاريخ العريق و الثمين.

وقد قامت إشكالية هذا البحث حول ما يلي:

- ما مدى توظيف موضوع الثورة في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية والعربية ؟

- ما مدى اِلتزام الأديب بأحداث الثورة التحريرية؟

- ما هي الآليات التي وظفها الروائي لتجسيد موضوع الثورة في مضامين الرواية؟

أما خطة البحث، فقد وجدنا صعوبة كبيرة في وضع أسسها، وفضلنا الاعتماد على الآليات التي وظفها الكاتب، وبناء عليه قسمنا البحث إلى فصلين ومقدمة ومدخل و خاتمة.

تناولنا في المدخل مفهوم الثورة و الرواية الثورية أو الأدب الثوري بشكل عام، كما تناولنا فيه مميزات الرواية الثورية الجزائرية من حيث اللغة و الأسلوب، مع التركيز على الأديب الجزائري بشكل خاص.

وخصصنا الفصل الأول من البحث، لدراسة الرواية الثورية من خلال مبحثين، المبحث الأول تعرض إلى نشأة الرواية الثورية، في الغرب أولاً الذي كان له شرف البدء في توظيف الثورة في المضامين فكانت على شكل تنبؤات بقيام الثورة، ومنذ قيامها في أوربا وخاصة الثورة الفرنسية اتجه الكاتب إلى تجسيد الواقع بما فيه من تناقضات، أما عند العرب فقد كان توظيف الثورة في الإبداع الروائي هاجسا يحضر بكثرة خاصة في مصر التي كانت السباقة إلى تصوير وقائع الثورة المصرية سنة1952، وقبل ذلك كانت على شكل تنبؤات بقيام الثورة المصرية واندلاعها بعد طغيان الملك.

أما المبحث الثاني فتعرض إلى الرواية الثورية في الجزائر بشكل خاص، والتي كانت حاضرة بكثرة في الإبداعات الأدبية، حتى أصبحت هاجسا لابد للأديب أن يوظفها، فالمبدع لا يستطيع أن يبدع من الفراغ، وإنما يتجه إلى الواقع ينهل منه موضوعاته فجعل الرواية تتفاعل وجدانيا وفنيا مع موضوع حساس ألا وهو الثورة الجزائرية، وذلك سواء باللسان الفرنسي أو اللسان العربي. ومالك حداد أحد الأصوات البارزة في هذا المجال و كانت له كلمة صريحة حول موضوع الثورة و القضية الجزائرية بصفة عامة، فكانت حرب التحرير الصورة التي ارتسمت في إبداعاته الروائية رفقة آسيا جبار ومولود فرعون، و محمد ديب و مولود معمري و كاتب ياسين و الطاهر وطار، ورشيد بوجدرة و واسيني الأعرج و عبد الحميد بن هدوقة، وغيرهم من الكتاب الذين تزخر بهم الجزائر، وساهموا في إثراء الرواية الجزائرية الثورية باللغة الفرنسية و العربية.

أما الفصل الثاني فتناول الثورة الجزائرية في رواية "الانطباع الأخير"، ففي مبحثه الأول تم التركيز على ملخص الرواية حتى يتمكن القارئ من معرفة محتواها، والمبحث الثاني تعرض إلى تجليات ثورة التحرير في هذه الرواية و ذلك من خلال الشخصيات و ما حملته من أبعاد ثورية و تناولنا ظاهرة التصوير أي كيف صوّرت الثورة التحررية وذلك من خلال

تركيزه على البدايات الفعلية لاندلاع الثورة التحريرية، كما تناولنا الزمن الروائي من خلال تركيزه على زمن اندلاع الثورة التحريرية فاسقط جميع الأزمنة و ركز على أول نوفمبر.

ثم أنهينا البحث بخاتمة تعرضنا فيها إلى أهم الاستنتاجات، كما زودنا البحث بقائمة المصادر و المراجع في مختلف المجالات، و بالأخص رواية "الانطباع الأخير" لمالك حداد و غيرها من المراجع التي تخدم بحثنا، وعلى الرغم من الصعوبات التي واجهتنا خلال مشوارنا في البحث

إلا أننا استطعنا أن نتجاوزها بفضل إصرارنا و إرادتنا و العمل المتواصل و الاجتهاد الذي

رافقنا طوال مسيرة بحثنا.

وفي الأخير نتمنى أن يكون بحثنا قد أحاط بكل العناصر الأساسية التي يقتضيها البحث، و إن كان هناك نقص في بعض العناصر أو المضامين فهذه ليست نهاية الدراسة إذ يمكن لقارئ المستقبل أن يُلم بالجوانب الأخرى و يحلل المواضيع من جوانب مختلفة واستيعاب جميع المعلومات التي تخص النص الأدبي و الرواية الجزائرية بشكل خاص.

و الله ولي التوفيق

المدخل

1- مفهوم الثورة .

2- مفهـوم الرواية الثورية.

3- مميزات الرواية الثورية الجزائرية.

1- مفهوم الثورة:

تعتبر الثورة حق من حقوق الشعب التي يمارسها لرفع الظلم عنه، وتغير الواقع السائد إلى وضع جديد يسمح له بممارسة حريته كاملة غير منقوصة. ولذلك فالثورة تهدف إلى تحرير الشعب من أشكال الهيمنة و الاستعباد و السيطرة و مصادرة الحرية. فالثورة بمفهومها اللغوي « تعني الهيجان و الضجة و التمرد على السلطة الحاكمة لإطاحتها أو على النظام القائم لتغيره، وتحدث تغيرًا هاماً جداً في النظام البشري أو بنية الدولة، وقد تكون ثورة أخلاقية أو اجتماعية »[1]

وبما أن الثورة في حقيقتها حدث بارز فإنها تُعّرف على أنها « تغير جوهري في الأوضاع السياسية و الاجتماعية لدولة معينة »[2] .

2- مفهوم الرواية الثورية: هي الرواية التي تعبر عن الفعل الثوري، فهي عبارة عن صوت يصدر من ذات تنشد الحرية، وبذلك تلتقي مع الثورة، وهي الوعاء المناسب لتجسيد أحداثها و بطولاتها، أو بعبارة أوضح هي الرواية التي تمجد أفعال الثورة و تشيد بمنجزاتها وبكل تغير تحدثه، و من ذلك « علاقة الأدب بالثورة علاقة تأثير فالأدب يدعوا إلى الثورة و التغير، والثورة تغير من مفاهيم الأدب و شخصياته و رؤاه »[3] .

وإذا كانت الثورة فعل متجدد و متسارع، فإنه يصعب رصده في عمل فني، لذلك يحتاج العمل الروائي الذي يتناول موضوع الثورة إلى عبقرية فنية قادرة على متابعة الأحداث و إحساس فني لا تفوته جزئيات الأحداث.

---

[1] - معجم مجاني الطالب/ معجم لغوي عربي، منشورات المجاني، ط1، بيروت، 2004، ص107.

[2] - عبد المالك مرتاض: المعجم الموسوعي لمصطلحات الثورة الجزائرية، دار الكتاب العربي، الجزائر،2010 ص45.

[3] - أحمد محمد عطية: البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة، وزارة الثقافة السورية، 1977، ص27.

وعلى العموم لكل ثورة أدبها الخاص الذي يعبّر عنها ويشيد ببطولات رجالها، وصمودهم و تحديهم وليس هناك ثورة بدون أدباء يشيدون بها و ينشرون أفكارها النضالية.

فالثورة تفتح أفق الأديب على الواقع الذي يعيشه، وتوفر له موضوعات جديدة تحفزه على التعبير الصادق وتجسيد الفعل الثوري بشكله المتجدد.

3- مميزات الرواية الثورية الجزائرية:

إن الثورة التحريرية منحت الأدب زخماً ثورياً جديداً وحقيقياً، حيث عمَّ جو الثورة كافة الإنتاج الأدبي، ذلك أن الكتاب اِنضموا إليها منذ اِندلاعها بأفكارهم، وإبداعاتهم، وأرواحهم، وحاولوا اِستلهامها من خلال مواقعهم التي كانوا يحتلونها، فاستمدوا منها موضوعاتهم و حاولوا رفع مستواها الفني حتى تبلغ الثورة في صفائها، وتتماشى مع جوهرها الأسمى وأهدافها الإنسانية التي قامت من أجلها « إذ توجهت عدسة الكاتب إلى الجوانب المشرقة من حياة الثورة لرصد تطور حركة الوعي الثوري داخل الإنسان المظلوم، و التفاؤل بانبثاق فجر جديد »[1].

يمكن الحديث عن موضوع الثورة الذي غزا الرواية الجزائرية وبالأخص رواية السبعينات، فقد خصص المبدعون حيزاً واسعاً في صفحات رواياتهم للتعريف بالثورة الجزائرية وذكر بعض الحقائق التي رافقتها ومدى انعكاسها آنذاك على واقع الشعب الجزائري وهذا ما تجسد بوضوح في أعمالهم مما جعل الرواية في السبعينات تكتسي حلة مميزة تجعلها تختلف عن باقي الروايات «غير أن ما يلاحظ على أغلب روايات السبعينات في تعاملها مع الثورة أن أصحابها صاغوا نصوصا طغت فيها العلامات و القرائن الدالة على المؤلف »[2]، « الذي تبنى التهويل بالتقديس والتغني بالثورة إلى درجة أن موضوع الثورة ذاته يتوارى ليصبح مجرد موقف اجتماعي أو سياسي محدود من أجل تجاوز وضعية معينة كأن تكون اجتماعية أو سياسية أو رد فعل على تصرف أو سلوك المستعمر، ولم تكن مواقف رد فعل ضدّ وضع وجودي أو حتمي معين كما حصل في الواقع »[3] أفقدت الثورة خصوصيتها وأصبح التعامل معها على أنها ظاهرة يجب التغني بها وذلك بأسلوب يغلب عليها الذاتية ومن المظاهر التي نجدها في الرواية الثورية «غياب المبررات السببية سواء في بناء الحدث أو في رسم صورة الشخصية التي غالبا ما نجدها ممتلئة دلاليا منذ البداية أو نجدها فارغة دلاليا دون بطاقات دلالية، قد تماثل ما نجده في الواقع، ولعل سمة التهويل هذه هو ما جعل النصوص الروائية غالبا ما تنتظمها ثنائيتان يتمثل شقها الأول عالم المجاهدين، ومن معهم ممن

---

[1]- محمد جاسم الموسوي: الرواية العربية النشأة و التطور،ص187.

[2] - أمنة بلعلى: المتخيل في الرواية الجزائرية (من التماثل إلى المختلف)، دار الأمل، تيزي وزو،2006،ص53

[3] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

يجسدون صفات البطولة و التضحية، ويمثل الشق الثاني عالم المستعمرين ومن سار معهم من الخونة الذين يظهرون بكل المواصفات السلبية الجسدية و الأخلاقية »[1] .

فالراوي يرسم صورة المجاهدين في الجبال و أبسط الوسائل التي يملكونها إضافة إلى ذلك طائرات العدو التي تترصدهم وحالة الترقب و القلق التي تسيطر عليهم. ومن جهة أخرى يرسم الشخصية النقيضة التي تحمل أبشع الصفات من الخونة و جنود الاحتلال.

بالإضافة إلى ذلك نحت الروائيون نماذج بطولية تنبع من رحم الواقع الجزائري ومن مواقفهم الذاتية تجاه الثورة « لذلك فهم لم يقدموا الثورة كحدث تاريخي بل كحدث اِنفعالي بنتائج فعل الثورة»[2] والروائيون قد تفننوا في اِستثمار أحداث تاريخية وتعاملوا معها تعاملا مزجوا فيه بين الواقع الثوري والمشهد التخيلي، فالرواية الثورية « تصور مآسي الواقع الاستعماري، ولعل ما كتبه محمد مفلاح كاف للتعبير عن ذلك الواقع حتى غدت كأنها حفريات في الذاكرة المأساوية للشعب الجزائري »[3] .

وقد كانت الثورة التحريرية بمثابة الدافع الذي جعل الرواية تنخرط في واقع المجتمع الجزائري، فحققت الرواية الثورية الجزائرية اِنتماءها و خصوصيتها الثورية.

أما فيما يخص لغة الرواية الثورية « التوسل بلغة العبارة المباشرة »[4] ، و المباشرة هي اللغة التقريرية التي يفهمها الناس جميعا و غير مقيدة بالغموض والتصنع والتكلف فهي تتجه إلى عامة الناس بحكم موضوعها الحساس الذي يقترب من معاناتهم، كما اتسمت « ببساطة اللغة وبالتقريرية، ولئن كانت لغتها قائمة على التشبيهات والاستعارات فإنها من قبيل الاستعارات الميتة التي يحيا بها الناس العاديون و يتداولونها وتشكل جزءا من حديثهم اليومي »[5] .

---

[1] - أمنة بلعلى: المتخيل في الرواية الجزائرية، ص53.
[2] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[3] - المرجع نفسه، ص52.
[4] - المرجع نفسه، ص54.
[5] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

إلا أنها « منحت الثورة حالة جمالية للرواية الجزائرية، أنتجت ثقافة بأكملها تجلت فيها الثورة من خلال الرموز وعلامات دالة » [1] .

[1] - أمنة بلعلى: المتخيل في الرواية الجزائرية، ص 57.

الفصل الأول: نشأة الرواية الثوريــة

المبحث الأول: الرواية الثورية

1- عند الغرب

2- عند العرب

المبحث الثاني:الرواية الثورية في الجزائر

1- باللسان الفرنسي

2- باللسان العربي

المبحث الأول : الرواية الثورية

1- عند الغرب:

لم تحقق الرواية باعتبارها جنسا أدبيا الاستقلال، وتتميز بوجودها وشكلها الخاص في الأدب الغربي والعربي إلا في العصور الحديثة، حيث اِرتبط مصطلح الرواية بظهور وسيطرة الطبقة الوسطى في المجتمع الأوربي في القرن الثامن عشر، فحلت هذه الطبقة محل الإقطاع الذي تتميز أفراده بالمحافظة والمثالية والعجائبية، وعلى العكس اِهتمت الطبقة البرجوازية بالواقع والمغامرات الفردية، وصوّر الأدب هذه الأمور المستحدثة بشكل حديث اِصطلح الأدباء على تسميته بالرواية الفنية، في حين أطلقوا اِسم الرواية غير الفنية عن المراحل السابقة لهذا العصر الحديث، حيث تميز الأدب القصصي منذ القديم بسيطرة أدب الطبقة الحاكمة.

والحديث عن الرواية في العصر الحديث يقودنا إلى الثورات الكبرى التي عرفها هذا العصر وما كتب عنها، والحقيقة أن الرواية أول من تنبأت بحدوث هذه الثورات « فما كتب مثلا في الثورة الفرنسية من إبداعات روائية، إنما جاء قبلها في شكل تنبؤات، وردت في أعمال "ديدرو" و"موسكيو" أو جاء بعدها بعقود في أعمال روائية مطولة على يدّ "فكتور هيڤو" و"ألكسندر ديماس" »[1] ، ففرنسا دافعت بأقصى قوة عن تقاليد القرن الثامن عشر، ومعها تقاليد الثورة ضدّ اِدعاءات روما نتيجة إعادة النظام الملكي.

« والشيء نفسه يقال في الثورة الروسية التي تنبأت في أعمال "ماكسيم غوركي " القصصية والروائية قبل حدوثها بما يقارب عقدين من الزمن وعبرت عن وقائعها أعمال "نشولوخوف" و"باستيرناك" بعد وقوعها بما لا يقل عقدين من الزمن أيضا »[2]

---

[1]- أحمد منور: الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية (نشأته وتطوره وقضاياه)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص273.

[2]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

فصور "ما كسيم غوركي" « هؤلاء المستعمرين الأوائل (...) الذين هاجروا من إنجلترا لكي يحتفظوا بحريتهم إلاّ أنهم يهدمون بأنفسهم هذه الحرية بأعمالهم في أمريكا (...) ويقدم تناقضات التقدم البشري التي تكون ثمرة المرحلة التالية للمرحلة الثورية »[1]

« إنجلترا عاشت هي الأخرى صراع سياسي تجسد في الحرب الأهلية بين الملك والبرلمان، نجد هناك رواية صورت هذه الحرب وهي رواية "ييرسي هربرت" بعنوان" الأميرة كلوريا" أو قصة "الرومانس الملكية"»[2] ، فقد عانت الحرب الأهلية وما ترتب عنها في نظر المؤرخين والروائيين على حد سواء هي اللحظة الحاسمة في تكوين إنجلترا الحديثة. فقد كانت كارثة عظمى في التاريخ الحديث فكانت تقاس بالثورة الأمريكية والثورة الفرنسية، كما نجد رواية (دي كوستير) "بولينسيغل" وهي تحكي عن نضالات الشعب الهولندي التحريرية، فقد اِستطاع أن يوصل الماضي الثوري البطولي للشعب البلجيكي بالحاضر.

[1]- ينظر: جورج لوكاش: الرواية التاريخية، ترجمة صالح جواد الكاظم، دار الطليعة، بيروت،1978، ص107.
[2]- ياترك يارندر: الأمة والرواية الإنجليزية من بدايتها حتى الوقت الحاضر، ترجمة محمد عصفور، ط1، ع1336، القاهرة، 2009، ص90.

2- عند العرب:

لقد بدأ فن الرواية في الأدب العربي يشق طريقه إلى الوجود منذ العقد الأول من هذا القرن، إلا أن الازدهار الحقيقي لفن الرواية كان عقب الحرب العالمية الثانية، فتكاثرت الأعمال الأدبية و تناولت موضوعات واقعية تصب في كيان المجتمعات العربية، و ذلك راجع إلى تزايد الوعي بواقع الظروف السياسية و الاجتماعية التي كان يعيشها العالم العربي، فكانت أحد العوامل الأساسية التي دفعت الكتاب إلى الانصراف بشكل واسع إلى تصوير كفاح الشعوب و الثورات القائمة في تلك الفترة، فنهلت الرواية موضوعاتها الفنية من هذا الشق، لاسيما أن هذه الفترة عرفت صراعات دامية « ضد الاحتلال الأجنبي و الحكم الملكي الذي يشايعه و من ثم اِندفع بعض الكتاب إلى إحياء بعض الأمجاد التاريخية و تخليدها بشكل روائي إحساسا منهم بشخصية الوطن القومية، و كفاحه البطولي عبر فترات التاريخ »[1] .

الأمر الذي جعل موضوع الثورة ماثلا بشكل قوي في الإنتاج الروائي، لتصبح بذلك ركيزة أساسية تحضر في سائر الأعمال الأدبية و التي تحمل قاسما مشتركاً في تضمين صورة المستعمر الغاشم و صور المقاومة الشعبية، فتفاعلت الرواية مع الأحداث التي كانت حاضرة في العالم العربي و بالأخص في مصر التي كان لها شرف البدء في هذا المجال.

و الواضح أن البداية الفعلية للرواية الثورية كانت على شكل تنبؤات بقيام الثورة المصرية و ذلك على يد "نجيب محفوظ" في روايته "رادو يس"« حينما أوضحت الرواية كيف اِنتهت الأحداث بتبدد الملك و اِندلاع الثورة »[2]، فجاءت الرواية إسقاطا واقعيا للأحداث القائمة في مصر، بينما جسدت رواية "كفاح طيبة" مقاومة الشعب ضد المستعمر، قبل قيام الثورة المصرية، « و كانت الأوضاع الاجتماعية و السياسية التي سادت المجتمع المصري مند اِندلاع الحرب العالمية الأولى، و إلى ما بعد قيام الثورة المصرية في سنة 1952 مادة خصبة أمام هؤلاء الكتاب فصاغوا منها أعمالا روائية، تعد علامات بارزة في فن الرواية العربية في العصر الحديث »[3].

---

[1] - شفيع السيد: اتجاهات الرواية العربية في مصر، دار الفكر العربي، ط3، القاهرة، 1996، ص26.

[2] - د. السعيد الورقي:اتجاهات الرواية العربية المعاصرة، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1998 ، ص35.

[3] - شفيع السيد:اتجاهات الرواية العربية في مصر، ص 97.

كما صور "نجيب محفوظ" أحداث الثورة المصرية التي جرت سنة 1919، فأعطى نموذجا من التضحية الدموية و ذلك في ثلاثيته "بين القصرين" "قصر الشوق"و"السكرية"، أما في روايته "قلعة الأبطال"استعرض حياة مصر السياسية و الاجتماعية« وما كان يسودها من بؤس واضطراب أدى إلى اندلاع الثورة العُرابية و ما تبع ذلك من احتلال الإنجليز لمصر سنة 1882»[1] و نجد أيضا "أبو حديد" في روايته "الوعاء المرمري"يدعوا إلى تحرير الوطن و دنس الاحتلال الأجنبي، ولم تخل روايات "الجارم" من تصوير نضال الشعب المصري و ذلك في روايته "غادة رشيد"و « تبدأ أحداث هذه الرواية ببداية الاحتلال الفرنسي لمصر سنة 1798 و تنتهي بموقعة رشيد بين المصريين و الإنجليز سنة 1807»[2] . و قد كانت رياح التغير التي هبت على المجتمعات العربية بقيام الثورة عاملا أساسيا في بروز الرواية الثورية أو ما يسمى برواية النضال الوطني أو الرواية الواقعية، فاقتحمت بذلك واقع المجتمع العربي، وبالأخص في مصر،فركزت على الأوضاع التي كانت سائدة سواء قبل الثورة أو بعدها وما اِستتبعها من تغير جوهري في مضامين الرواية العربية، و بعد قيام الثورة المصرية سنة 1952، ألف "نجيب محفوظ "روايته"السمان و الحريق" التي تصور الواقع الثوري الجديد، بينما استرجع مجد الكفاح الوطني في روايته"ميرمار" الذي صور الكاتب من خلالها رحلة الكفاح و تأييده للثورة ضد الاحتلال البريطاني.

« وكذلك نلاحظ في رواية الأرض للشرقاوي محاولة لتقديم موقف ثوري »[3]، يأخذ أبعاده من واقع الحياة النضالية التي عرفتها البلاد العربية في تلك الفترة، و حاول غائب طعمه فرمان العراقي في روايته "النخلة و الجيران 1969"و "خمسة أصوات1967" أن يركز على تصوير معاناة الشعب العراقي خلال حروب العدوان و رصد كافة أشكال القهر و الدمار الذي حضي به في تلك الفترة الحاسمة، ومنذ جيل الثمانينات صورت الرواية العراقية لهيب الحرب« فعبرت عن دلالة الحرب الدائرة على البوابة الشرقية »[4] ومنها رواية "مكابدات عبد الله العاشق"لعبد الخالف الراكبي.

« ويختار غسان كنفاني الفلسطيني لمادة روايته عالماً مختلفاً محددا بحدود القضية الفلسطينية و يحاول من خلال هذه المادة تقديم الواقع الثوري من خلال صراع قهري بين عدو غاصب »[5] و بين

---

[1] - د. شفيع السيد: اتجاهات الرواية العربية في مصر، ص37.

[2] - المرجع نفسه، ص50.

[3] - د. السعيد الورقي: اتجاهات الرواية العربية المعاصرة،ص 163.

[4] - مصطفى عبد الفني: قضايا الرواية العربية، الدار المصرية اللبنانية، ط1، القاهرة، 1999، ص.31

[5] - د. السعيد الورقي: اتجاهات الرواية العربية المعاصرة، ص246.

شعب قليل الحيلة و ذلك في روايته "رجال في الشمس1963"و التي تعتبر مرآة عاكسة للأوضاع التي كانت تحوم حول فلسطين من قهر و حرمان.

«كما حاول خلق البطل الثوري الذي يتغلب على العدوان و رجاله بكفاحه المسلح و ذلك في أعماله التالية "ما تبقى لكم 1966"، "أم سعيد 1969"، و عائد إلى حيفا 1970»[1].

بينما اِتجه "أبو بكر خالد"، الروائي السوداني في روايته" بداية الربيع"1958 و"المنبع المر"1967 و"القفزة فوق الحائط القصير" 1976 « إلى تأكيد هذه الصيغة الثورية التي رأيناها عند الطاهر وطار وغائب طعمه فرمان و غسان كنفاني»[2] .

وقد حاول "فؤاد حجازي" في روايتي "شارع الخلا1962"و نافذة على بحر طناح" أن يصور الكفاح ضد البرجوازية الصغيرة من جهة و من جهة أخرى صور« صراعها المسلح ضد الاستعمار و الغزو العسكري في عدد من الروايات منها، المحاصرون1978 و "رجال و رجال ورصاص"، و الأسرة يقيمون المتاريس1976 »[3] .

أما في تونس كتب "محمد المختار جنات""نوافذ الزمن"،كما كتب "محمد صالح الجابري" رواية "من أيام زمرة" و كلاهما يرسم صورا مليئة بالحياة و الانتفاضات الشعبية ضد الدعم الاستعماري الفرنسي، و في رواية "دفن الماضي" للكاتب المغربي "عبد الكريم غلاب" يكشف عن التوتر الكامن لدى شعب يخضع للسلطة الأجنبية، هذا إلى جانب رواية الشوارع الخلفية "لعبد الرحمان الشرقاوي" و "يوسف إدريس" في "قصة حب " و "إحسان عبد القدوس" في روايته "في بيتنا رجل"، إلى جانب رواية "حيدر" "وليمة لأعشاب البحر" التي كتبت في الجزائر و التي لا تخلو من مقاطع بليغة في معاني الكفاح، وصورت "غادة السمان" الروائية السورية في روايتها "عيناك قدري1962" الأجنبي الكاسر الممثل في الاستعمار الفرنسي بممارساته الوحشية ضد الشعب، وغيرها من الروايات التي تنتمي إلى الاتجاه الثوري الذي يسعى إلى « تأكيد الذات الوطنية و إبراز روح النضال الكامن في أعماقها، و الإيحاء بأن تفجير هذه الثورة جاء تتويجا لمعارك ضارية خاضتها القوى الوطنية في مرحلة سابقة »[4] ليصبح بذلك الأدب العربي بصفة عامة متفاعلا وجدانيا و فنيا مع أحداث الثورة التي كانت حاضرة في العالم العربي.

---

[1]- د. السعيد الورقي:اتجاهات الرواية العربية المعاصرة، ص246.

[2]- المرجع نفسه،254.

[3]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4]- د. شفيع السيد: اتجاهات الرواية العربية في مصر، ص205.

المبحث الثاني: الرواية الثورية في الجزائر

1- باللسان الفرنسي:

لقد حضيت الثورة بمكانة عظيمة في أعمال المبدعين الجزائريين لما خلفته من اِنعكاسات على أفراد الشعب الجزائري، فليست الثورة بالنسبة للأمة مجرد ماض و اِنتهى بل هو ذلك الكنز الذي يحفظ تراث المجتمع و مدخراته في الفكر و الثقافة و العلم و التجربة، و لوحات دامية من التناقضات و الحقائق التاريخية، و من هنا فقد عدت الثورة الجزائرية بما حملته من أحداث و وقائع مصدر اِلهام بالنسبة لرجال الأدب على مر الأزمنة.

و هذا ما تجلى بوضوح في الكثير من الإبداعات التي اِرتبطت بالأجناس الأدبية، ومنها « الرواية التي حملت على عاتقها التحدث بلسان المؤرخ، فسجلت باهتمام كل ما مر على الشعب الجزائري من أحداث »[1]، كما عالج الروائيون الجزائريون « العديد من الأحداث التي اِرتبطت بالتاريخ الحديث من خلال التركيز في موضوعاتهم على صورة الثورة التحررية الكبرى »[2] و التي كانت مرجعية ثرية اِستقى منها جل الروائيين الجزائريين مادتهم في تأليف رواياتهم التي تناولت جوانب من أحداث الثورة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وذلك من خلال التفنن في اِستثمار أحداث تاريخية، فتعاملوا معها تعاملا مزجوا فيه بين الواقع الثوري و المشهد التخيلي « تلك الثورة التي كانت حبلى بالجروح و الآلام و مليئة بالعظات و العبر و مسجلة لمجد الأمة و كرامتها، فقد خصص المبدعون حيزا واسعا في صفحات روايتهم للتعريف بالثورة الجزائرية، و ذكر بعض الحقائق التي رافقتها و مدى اِنعكاسها آنذاك على واقع الشعب الجزائري »[3]

وقد كان لهذا الحدث وقع خاص في نفوس الأدباء و المثقفين الجزائريين بصفة عامة، حيث أثار النخوة في قلوبهم و أضرموا فيها نار التمرد و الثورة، ليشتدّ الصراع بين الكيان الجزائري و الكيان الفرنسي خاصة مع تزايد وعي الكاتب الجزائري بالأوضاع المتردية التي يعيشها أبناء بلده و المشاكل السياسية و الاجتماعية، فظهر مصطلح "أدب الثورة "أو "أدب المقاومة "

---

[1]- سميرزيـــاني : تجليات الثورة في الرواية الجزائرية، دار المعرفة،ع2014،606،ص92.

[2] - المرجع نفسه، ص92.

[3] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الذي يستهدف محاربة الاحتلال و تعرية أهدافه و كشف نواياه، و قد سجلت الرواية الجزائرية الثورية حضورا قويا في تلك الفترة، فكانت أكثر الأجناس الأدبية بروزا و اِنتشارا، باعتبارها الوعاء الذي يحوي القضية الجزائرية بكل معالمها و أبعادها، حيث وجد فيها الأديب الجزائري الشكل الملائم للتعبير عن قضية شعبه ووطنه و آماله الكبيرة في تحقيق الحرية، فأصبحت موضوعات الرواية الجزائرية الثورية في مجملها متمحورة حول موضوع الثورة، فنجدها تصور لنا وقائعها و بطولاتها خصوصا و أن أغلب الكتاب الجزائريين كانوا قد ولدوا قبل الثورة التحررية فجاء التصوير صادقاً أميناً.

كما شهدت هذه الفترة ميلاد "الرواية الجزائرية الثورية المكتوبة باللغة الفرنسية" و التي أسسها جماعة من المثقفين الجزائريين خرجي المدرسة الفرنسية الذين حاولوا التعبير عن القضية الجزائرية باللغة الفرنسية، فكان الكاتب في تلك الفترة ملتزم بالقضية الوطنية و مأساة الشعب الجزائري، و كان ظهور هذا النوع من الكتابة في الرواية الجزائرية ردًّا على بعض الروائيين الفرنسيين الذين حاولوا تزيف حقيقة الوضع في الجزائر، لذلك حاول الكتاب الجزائريين نقل الصورة الحقيقية للواقع الجزائري آنذاك، حيث صوروا سياسة القمع والقهر و الدمار التي مارستها فرنسا في الجزائر، كما اِستطاع الكتاب فضحه و إدانته وذلك بلغته، فأصبحت الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية أحد الوجوه الأساسية للمقاومة الوطنية ضد المستعمر، خاصة مع اِندلاع الثورة التحريرية التي كانت مادة دسمة تغترف منها الرواية موضوعاتها، لتصور بطولات أبنائها في قالب فني أدبي راق، فتوجهت إلى واقع الوطن و الشعب و إلى الظروف القاسية التي يعاني منها الشعب فأصبحت الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية في هذه المرحلة طرحا مباشرا و صريحا للقضية الوطنية بلغة المستعمر« فتصويرها الحاضر بشكل واسع و واقعي يتناول في أماكن مختلفة أحداثا مهمة في التاريخ »[1] الجزائري. فقد تفاعل الأديب مع الحقيقة الراهنة ووجه عدسته نحو الثورة بشكل واسع وذلك على يد الكثير« من الكتاب و الأدباء الذين هم بطبيعتهم أكثر إحساسا بالمعاناة الوطنية بكل اِمتداداتها »[2]

[1] - جورج لوكاش: الرواية التاريخية،ص.13

[2]- عمر بن قينه: في الأدب الجزائري الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص41.

وقد شكلت الكتابة باللغة الفرنسية محورا هاما في الأدب الجزائري الحديث و المعاصر الذي يزخر بأمثلة عديدة من الكتاب الذين كتبوا بلغة غير لغتهم، « و الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية ليس من الأدب الفرنسي في شيء و إنما هو أدب عربي كان مضطرا إلى اِستعارة اللسان الفرنسي، لظروف يعلمها الفرنسيون قبل غيرهم »[1] .

وكثيرا هم الكتاب الجزائريين الذين كتبوا عن الثورة الجزائرية سواء في الفترة التي سبقتها أو خلال اِندلاعها وحتى بعد الاستقلال وتصنف جميع هذه الروايات ضمن الرواية الثورية أو أدب المقاومة « وكان نتاج هؤلاء الكتاب يشف من وراء اللغة الفرنسية عن أحوال المجتمع الجزائري وعن معاداته للاستعمار الفرنسي، وأهم ما يتميز به هذا الأدب واقعيته، تلك الواقعية المتبلورة في عجين الواقعية النقدية »[2] .

ولقد عانت « الجزائر من هيمنة الاستعمار الفرنسي ردحا غير قصير من الزمن، أكسب شعبها لغة العدو و التي فرضت عليه فرضا بعد ما حرم من لغته الأصلية، نتيجة هذا ظهر عدد من الكتاب الجزائريين، اِستخدموا هذه اللغة في المجالات الأدبية، كالقصة والرواية والمسرح والشعر، واِستطاعوا أن ينافسوا بهذه النتائج، الأدباء الفرنسيين»[3]

ولقد كان « لهذا الأدب دور فعال في إشعال نار الثورة في الجزائر التي نما في أحضانها »[4]

ولعل من أبرز رواد الكتابة الروائية الثورية، الروائي الجزائري"مولود فرعون" الذي كتب "ابن الفقير" الصادرة سنة 1955 حيث بين فيها كيف يكون الطبع الحقيقي للرجل القبائلي، أما الجانب الأخر الذي تصوره الرواية وهو الجانب الذي يصف الظروف التي مهدت لثورة التحرير، ونجد في رواية "الأرض والدم"و"الدروب الوعرة" جمع فيها "مولود فرعون" بين ثقافتين و صور المشكلات والمتناقضات التي زخرت بها مرحلة يقظة الوعي الوطني للجزائريين في تلك المرحلة المرتبطة بالكفاح من أجل الاستقلال .

---

[1]- محمد ديب: مقدمة ثلاثية النول، الحريق، الدار الكبيرة،ترجمة سامي الدروبي،الوحدة للطباعة، بيروت 1985،ص5.

[2]- شايف عكاشة: مدخل إلى عالم الرواية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1990،ص90.

[3]- المرجع نفسه، ص91.

[4]- المرجع نفسه، ص93.

كاتب أخر كانت له بصمة واضحة في أدب المقاومة وهو "محمد ديب" والذي اِرتبط اِسمه بالثورة الجزائرية من خلال ثلاثيته "الدار الكبيرة"، "الحريق"و "مهنة النسيج"، والتي تحمل في طياتها بعدا وطنيا واجتماعيا وتنبؤها التاريخي بالثورة الجزائرية من خلال تعرية جملة من العوامل السياسية و الاقتصادية والاجتماعية، وقد صورت الثلاثية جانبا من الجوانب الحاسمة في تاريخ الجزائر، متمثلة في « الإرهاصات الثورية التي تبنتها أغلب شخصيات الثلاثية، فانطلاقا من "عمر" الطفل الذي طالما ثار على ما كان يجري حوله »[1] بدَا أكثر تحمسا لتغير أوضاع بلاده «غير أن في "الدر الكبيرة"تبدوا بوادر الثورة على وجه العديد من الشخصيات »[2]

أما في رواية الحريق « فكرة الثورة بدأت تظهر عند "حميد سراج"منذ راح يكثف الفلاحين حوله و يناشدهم بالتضامن ضد المعمرين، وقد حمّل الكاتب شخصيتي"حميد سراج و عكاشة" بصورة خاصة مسؤولية زرع بذور الثورة»[3]

« إن من يقرأ ثلاثية "محمد ديب" وحدها يجد مواقف كثيرة تشير إشارات واضحة إلى الإرهاصات الثورية »[4]، فهي تؤكد ما رآه الدكتور محمد شكري عياد من أن « الأدب الجزائري و الثورة الجزائرية شقيقان توأمان »[5]

وهذه إشارة ضمنية للكاتب في مستقبل جديد و تحقيق ما ظلت الشخصيات تصبوا إليه وهو الثورة على الوضع وذلك من خلال الإرهاصات الثورية التي وضعها الكاتب في الثلاثية وتتجسد في «البوادر التي اِتخذها عمر للقضاء على مأساة الجوع عندما شرع يعمل، و الإضراب الذي شنه الفلاح عن العمل ليحصل من ورائه على زيادة في الأجرة، ومن جهة أخرى تتمثل بوادر الثورة في عاقبة السجن الذي وضع فيه "حميد سراج" واِختفاء عكاش»[6].

---

[1]- شايف عكاشة: مدخل إلى عالم الرواية الجزائرية،ص107.
[2]- المرجع نفسه، ص108.
[3]- المرجع نفسه، ص109.
[4]- المرجع نفسه، ص110.
[5]- عبد الله الركيبي: نفوس ثائرة، الدار المصرية للطباعة و النشر، ص50.
[6]- شايف عكاشة: مدخل إلى عالم الرواية الجزائرية، ص128.

كما نجد رواية "صيف إفريقي" 1959 لمحمد ديب « التي قدمت نماذج من صور المقاومة الشعبية، أبطالها فلاحون من الأرياف، وحرفيون في المدن، وشبان وفتيان، ومثقفون وأميون، وعرضت لوحات دامية مما كانت تقوم به القوات الفرنسية من قنبلة بالطائرات، وقصف بالمدافع للقرى و الأرياف، وتشريد لسكان تلك القرى، وما كانت تفعله تلك القوات نفسها في المدن من قمع وترهيب للسكان الأمنيين، وتعذيب للمناضلين والثوار »[1]

كما اِهتم "ديب" بتصوير أحداث الثورة من جديد في رواية "من يذكر البحر" ولكن بأسلوب مختلف، فلجأ إلى اِستخدام الرموز والتكثيف في الأحداث ولكن ضمن مسار الثورة.

« وعلى العموم فقد كتبت هذه الأعمال كلها أثناء ثورة التحرير من موقف ملتزم ومنحاز إلى الثورة»[2] فصور الصراع في روايته الثورية بأسلوب بسيط ومركب فاستعان بالشخصية الساذجة والمعقدة واِكتفى برسم الأوضاع المزرية التي سبقت الثورة وخاصة في المدن.

بالإضافة إلى ذلك نجد في الساحة الأدبية كاتب أخر يعد من كتاب الرواية الجزائرية الثورية باللغة الفرنسية وهو"مولود معمري" الذي نشر رواية "الربوة المنسية "صور من خلالها الوضع الذي آلت إليه الجزائر في ظل الاستعمار، ويعبر الكاتب عن مآسي الشعب وأحزانه.

وهذا ما تجسده رواية "الأفيون والعصا" التي تمثل ظاهرة بالغة الأهمية في الرواية الجزائرية الثورية، وقد تميزت أعماله بشكل عام بمسايرتها للواقع السياسي، كما تناولت الثورة التحريرية، فصور بعمق تلك المعاناة النفسية التي عاشها الفرد الجزائري العادي والمثقف وخاصة « داخل المعتقلات والسجون وتنظيم عمليات الهروب منها »[3]

وهذه التجربة الروائية يمكن عدها كما يرى جورج لوكاش « الطابع المشترك لردود فعل تجاه الواقع »[4]

---

[1]- أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص109.
[2]- المرجع نفسه، ص101.
[3]- المرجع نفسه، ص111.
[4]- جورج لوكاش: الرواية التاريخية، ص248.

وحاول "مالك حداد" أن يصور وقائع الثورة ويجسدها في أعماله الروائية، فحمل على عاتقه مأساة اللغة و الاستعمار، فكانت شديدة التعاطف مع موضوع الثورة وعاملها بكل حساسية وجدية ونتيجة لذلك كانت رواياته محملة بالعواطف والأحاسيس أكثر من مجرد أفكار وأراء.

فقد « كان صوت مالك حداد يحمل في حروفه هموم الثورة من أجل الحرية في سبيل أن تعلم الأجيال التي ستأتي أن الجزائر قد حررت بالدم والشهادة، وهذا دليل على أن اللغة الفرنسية لم تستطع أن تبعده عن التعبير الثوري وأن ما كتبه كان أكثر من وثيقة ثورية يظهر من خلالها إيمانه بقضية شعبه أيام الثورة الجزائرية المسلحة لأنه كتب باللغة الفرنسية لا بجنسية فرنسية »[1]

فاقتحم عالم الرواية الثورية وصور وقائع الثورة وذلك في رواية "الانطباع الأخير" « التي تعد أولى الروايات التي صورت وقائع الثورة المسلحة »[2] فتطرق إلى الأوضاع التي يعيشها المجاهدين في ظل اِنعدام الوسائل والسياسة التي اِتبعها الاستعمار في القتل والترهيب، « كما يرسم مالك حداد جو الحرب هذا في روايته "التلميذ والدرس"1960، و"رصيف الأزهار لم يعج يجيب" 1961، ولكن بطريقة مختلفة عن طريقة ديب، حيث يركز على جو القلق و التوتر الذي يطبع الحياة العامة أكثر مما يركز على الأحداث و الوقائع »[3]

وكان له دور فعال في إشعال فتيل الحرب والتحريض على المقاومة والقتال في سبيل الوطن وهذه ميزة نجدها بكثرة في رواياته، بينما جسدت رواية "نجمة" "لكاتب ياسين" رحلة العذاب التي تحمّلها الشعب ومختلف الصراعات والتناقضات التي سبقت الثورة التحريرية.

وكان له « موقفاً متميزًا في كتابته، فهو يبحث عن الوطن الأم مشخصا إياه في مرأة يسميها "نجمة" والحادثة التي أثرت تأثيرا بالغا على أعمال "كاتب ياسين" الأدبية هي مذابح سطيف »[4]

---

[1]- أحمد دوغان: في الأدب الجزائري الحديث، منشورات إتحاد الكتاب العرب، ط1، دمشق1996، ص324.

[2]- أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص109.

[3]- المرجع نفسه، ص110.

[4]- نوال بن صالح: الرواية المكتوبة بالفرنسية وثورة التحرير، مجلة الخبر، ع7، الجزائر، 2010، ص20.

ونجد في هذا المضمار "أسيا جبار"التي اِشتهرت بكتابتها باللغة الفرنسية، فأصدرت روايتها الأولى "الظمأ" التي لفتت إليها الأنظار فورا، في الوقت الذي كانت الثورة الجزائرية قد بدأت لتوها يرافقها كثيرا من الأدباء، غير أن بدايتها الحقيقية كانت مع رواية" أطفال العالم الجديد"1962 أي مباشرة بعد نيل الجزائر اِستقلالها.

لتبدأ من خلالها بطرح السؤال الأساسي حول مصير الثورة وشعبها، فرسمت من خلالها قسطًا كبيرًا من اِنجازات الثورة « وقد اِتخذت لها كإطار عام أحداث ووقائع الثورة المسلحة، من تصوير لعمليات المقاومة الفدائية في المدن »[1] وتدور أحداث الرواية خلال السنوات الأولى للثورة الجزائرية في المدينة التي تعيش الحرب يوما بعد يوم فكانت الشخصيات تتجول داخل الرواية لترسم "آسيا جبار"من خلالها بطولات الثورة بحكم أنهم يعيشون إرهاصات الثورة الحقيقية، والحال أن هذا الموضوع نفسه تقريبا الذي تتسلح به روايات "آسيا جبار" في معظم أعمالها بداية من "القبرات الساذجات"حتى"نساء الجزائر في شققهم"ومن "الحب الفانتازيا" إلى "واسع هو السجن" مرورا "بالظل سلطانة" و "بعيدا عن المدينة".

وكانت آسيا جبار في الرواية الثورية تصور وقائع الثورة في المدن والعمليات الفدائية، فنقلت الثورة إلى المدينة لتبين دور المدينة في إشعال فتيل الحرب.

وتنتمي معظم الأعمال الروائية التي ظهرت بعد الاستقلال، وحتى نهاية سنوات الستينات تقريبا إلى هذا الاتجاه الذي وصفناه بالاتجاه الملتزم والمنحاز إلى الثورة.

فكانت الرواية الثورية التي ظهرت على يد أدباء بارزين تحمل على عاتقها نقل القضية الجزائرية إلى خارج الوطن وتعرية المكشوف باللغة الفرنسية فكانت « تصور كلها بطش الاستعمار وبشاعة أعماله من جهة، وتشيد من جهة أخرى بكفاح الشعب وتتغنى بأمجاده ومآثره القديمة والحديثة وتعمق الإحساس بالوعي الوطني ووحدة الأمة، وتلتقي مع كتابات وأحداث تاريخية واجتماعية ظهرت في هذه الفترة »[2]

---

[1]- أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص111.

[2]- المرجع نفسه، ص111.

2- باللسان العربي:

لقد كانت الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية على رأس الأحداث الثورية فتفاعلت مع الواقع الثوري ونهلت منه موضوعاتها « وبما أن الثورة سواء عندما يقصد بها حرب التحرير خاصة أو الثورة الاجتماعية عامة، صارت موضوعا متداولا بكثرة في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية »[1]، اِقتربت بذلك من صورة الثورة وما اِستتبعها من تحولات، فأصبحت الرواية الثورية تابعة لأحداث حرب التحرير المتسارعة، وخاصة خلال سنوات السبعينات التي عرفت الرواية الثورية بروزًا واسعاً.

فلا يمكن الحديث عن الرواية في هذه الفترة « إلا من خلال ثلاثية هي الثورة التاريخ أو الذاكرة والثورة والأسطورة وبينهما الواقع الذي يتغذى منهما »[2] .

ومن الواضح أن البداية الفعلية لظهور هذا النوع من الكتابة كانت في سنوات السبعينات أين وجد « الكاتب الجزائري نفسه بين فكي كماشة، صورة الماضي القريب وصدمات الوقع المتحول، فكان يلتفت إلى الماضي ليستحضر حرب التحرير يسائلها طورا ويتلذذ بذكراها أطوارًا وهو في ذلك يحن إلى ماضٍ مجيد يستأنس به وقد يوظفه لنقد الواقع، وقد يقتحمه فيأتي اِمتدادا للخطاب السياسي الرسمي الذي جعل من التراث الوطني شعارًا لتكريس الشرعية التاريخية والمحافظة على السلطة »[3] .

أما خلال الحرب فإن ما كتب بالعربية، « لم يكن يلعب دورًا ريادياً أو قيادياً، لا لأن أحداث الحرب بطبيعتها أقوى وقعاً من التأثير الأدبي »[4] بل لأن مضمونها كان واقعي، فنضجت الرواية بفعل هذه الظروف وظلت الرواية الثورية تصارع وتفرض حضورها على الساحة الأدبية.

---

[1]- مخلوف عامر:الرواية والتحولات في الجزائر، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، ص6.
[2]- أمنة بلعلى: المتخيل في الرواية الجزائرية، ص 50.
[3]- مخلوف عامر: توظيف التراث في الرواية الجزائرية، منشورات دار الأديب، ط1، وهران، ص26.
[4]- مخلوف عامر: الرواية والتحولات في الجزائر، ص7.

والملاحظ أن روايات التأسيس كانت شديدة الارتباط بالثورة، حيث ركزت على تسجيل بطولات الأمة ومآثرها باللغة العربية، وقد كان الهدف من وراء ذلك تعميق الوعي بالهوية الوطنية وتحريض الشعب على المقاومة والكفاح وهي أعمال روائية تلعب دوراً فعال في صقل الشخصية الوطنية.

فبقيت فكرة النضال الثوري حاضرة بكثرة في النصوص الروائية وتفاعلت مع ثورة التحرير التي اِكتسبت « صفة المرجعية الأساسية في بنية الحدث الروائي وفضاءاته المختلفة »[1] وعلى هذا النحو ظلت « نصوص الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية، بما فيها الصادرة أخيرًا، مشدودة إلى فلك الثورة 1954-1962 واِمتداداته وعواقبها »[2].

وإذا عدنا إلى المتن الروائي الجزائري لوجدنا أن الرواية الجزائرية « قد رصدت الكفاح البطولي لأبناء الشعب، ممثلا في الثورة المسلحة - كما - رصدت أيضا الصراع الإيديولوجي »[3] الذي جسد الثورة كتناقض معقد يدور بين كتلة واحدة « ويتخذ الصراع طابعاً سياسياً ووطنياً واجتماعياً وتظهر الثورة فيه مشروعا اِبتدأ ولم يكتمل »[4].

وهذه الروايات تقريباً تنتمي إلى الواقعي الاشتراكي لأنهم ينظرون إلى الثورة بصورة تقديسية، فحاولوا أن يغيروا هذه الصراعات حتى لا تلامس قدوسية الثورة. ومن بين من كتبوا في هذا المجال "الطاهر وطار" الذي عدا مؤسس الرواية الإيديولوجية في الجزائر، وذلك من خلال روايته "اللاز" التي جاءت « كإنجاز فني جريء وضخم، يطرح بكل واقعية وموضوعية، قضية الثورة الوطنية لا من وجهة التحالفات المنطقية لقوى الثورة التي فرضتها تلك المرحلة »[5]

---

[1]- بشير بويجرة: بنية الزمن في الخطاب الروائي الجزائري، ج2، دار الغرب، (2001-2002)، ص123.

[2]- محمد برادة: الرواية الجزائرية بين ثورة الاستقلال وهاوية الإرهاب، مجلة الحياة الدولية، ع15008، السعودية 2004/04/20، ص15.

[3]-محمد الصالح خرفي: الديني والإيديولوجي في الرواية الجزائرية المعاصرة، مجلة قراءات، الجزائر، ص156.

[4]- المرجع نفسه، ص15.

[5]- واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائري، ص90.

بل تطرح جانبا من الصراع الذي كان يحدث بين رفقاء السلاح، وهي بذلك تريد أن تلفت الانتباه إلى أمر هام في سجل الثورة وهو الصراع الإيديولوجي، وتعمل على إظهار مقاومة سكان الريف للمستعمر ودورهم الفعال أثناء الثورة وما سلط عليهم من قهر وحرمان « إذ أن الثورة الجزائرية هي الهاجس المركزي الذي شكل فضاء هذه الرواية وأحال على مرجعية أحداثها »[1]

مما جعل الرواية « تتحرك في فضاء تاريخي معلوم ما تزال الذاكرة الشعبية تختزله وهو (الثورة الجزائرية) وما صاحبها من أوضاع سياسية واجتماعية ففي هذه الرواية يقلب (وطار) أحداث الثورة بكل ما صاحبها من تناقض »[2].

وقد شكلت « الاختلافات التي وقعت في جبهة التحرير مع العنصر الشيوعي مادة الجزء الأول من الرواية »[3] وذلك من دون أن يهمل الثورة التحريرية التي جسدها من خلال شخصية زيدان وهي « الشخصية الوحيدة التي استطاعت أن تصور قضية الثورة الوطنية بشكل صحيح وعلمي »[4]

بالإضافة إلى ذلك نجد "رشيد بوجدرة" الذي يكتب بكلا اللسانين في روايته "التفكك" « والتي تعد لبنة جديدة في صرح هرم الرواية العربية »[5] والذي صور من خلالها الثورة كتناقض معقد، فكانت فكانت ترمز إلى وجود انحلال سياسي حدث في فترة الثورة من خلال شخصية "الطاهر الغماري"، والتي تعالج « في عشوائية مبيتة جانبا من مراحل الصراع السياسي الخفي الذي عرفته شريحة من المناضلين عبر مسيرة الثورة »[6] .

---

[1]- محمد سيف الإسلام بوفلاقن: الطاهر وطار في ميزان النقد من الموقع http://pulpite.alwatan ، 2014/11/14، ص4.

[2]- عبد الرزاق دحمان: الرؤية التاريخية في الرواية الجزائرية المعاصرة، أطروحة دكتوراه العلوم، قسم اللغة والأدب، جامعة باتنة، 2013/2012، ص67.

[3]- محمد الصالح خرفي: الديني والإيديولوجي في الرواية الجزائرية المعاصرة، ص156.

[4]- واسيني الأعرج: تجربة الكتابة الواقعية الرواية أنموذج، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص42.

[5]- شايف عكاشة: مدخل إلى عالم الرواية الجزائرية، ص25.

[6]- المرجع نفسه، ص31.

كما عالج واسيني الأعرج الثورة بنفس الرؤية فكانت « في مقدمة الأحداث التي تلقي بظلالها على نصوص الكاتب، وهذا أمر طبيعي إذْ إن الفن الروائي في الجزائر اِتجه في بداية الأمر إلى الثورة يستقي منها ومن بطولاتها موضوعاته الأساسية »[1] .

ويمكن أن نرصد تواتر هذا الحدث الثوري واِختلاف طريقة اِستحضاره في روايات عديدة للكاتب ونأخذ على سبيل المثال رواية "ما تبقى من سيرة لخضر حمروش" التي سلطت « الأضواء على الصراع الإيديولوجي - إبان الثورة - بين اليمين واليسار واِنعكاساته السلبية على تاريخ الثورة »[2] وتنتقد الرواية على لسان السارد الصراعات والتناقضات التي عرفتها الثورة المسلحة والتي أدت بدورها إلى تصفية كثير من رموزها « ولا تقف عند هذا الحد بل تناولت الصراع السياسي أو ما يسمى بالتصحيح الثوري »[3] ، وتظهر الثورة بشكلها المعقد في رواية "صهيل الجسد""لزاوي أمين" الذي حاول من خلالها أن يشرح مختلف الصراعات الداخلية التي اِقتحمت جبهة التحرير الوطني.

« إن صورة الثورة في هذه الروايات الأربعة تتحدد معالمها بشكل متقارب، فهي تشترك في كونها تلمس أساس التناقض في المجتمع وتنتهي إلى أن حرب التحرير لم تكن سوى مشروع لم يكتمل إنجازه »[4] .

وقد جسدت الثورة على شكل صراع بين الكتلة الاستعمارية والمستعمَرة، وهذه الروايات أخذت من الثورة كمفهوم بسيط لا تتخذ عمقا وذلك بطريقة سطحية من جهة ومن جهة أخرى تصور الممارسات التي اِتبعها الاستعمار من فقر وتجهيل وتعذيب .

---

[1]- محمد مصايف: الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام، الدار العربية، الشركة الوطنية لنشر، الجزائر،1983، ص8.

[2]- هنية جوادي: التمثيل السردي للتاريخ الوطني في روايات واسيني الأعرج، مجلة المخبر، ع9، الجزائر، 2013، ص260.

[3]- المرجع نفسه، ص262.

[4]- مخلوف عامر: الرواية والتحولات في الجزائر، ص17.

ومن بين من كتبوا في هذا الاتجاه "محمد مفلاح" في روايته "هموم الزمن الفلاقي"والتي تتحدث عن المقاومة الشعبية التي رافقت الثورة، كما صورت معاناة المجاهدين وذلك من خلال الصراع الذي قاده أبناء منطقة غيليزان ضد الاستعمار الفرنسي والخونة الجزائريين، فجسدت « بركان الثورة الذي راحت سيوله الحارقة تجرف بلا هوادة الاستعمار وأعوانه الخونة »[1] .

كما كان الكاتب يعمد في روايته إلى تصوير المعاناة التي يعيشها المواطن الجزائري من قمع وتشريد وجوع واِستغلال وعنصرية وغيرها من الممارسات التي اِتبعها الاستعمار، وقد كانت لهذه الظروف دور فعال في تقبل البديل وما البديل إلا هاجس الالتحاق بالجبل، فهذا الجهاد كان يلامس كل من أحس بالذل والغيرة على وطنه.

وهناك رواية أخرى لامست الكثير من الأبعاد التاريخية وحاولت أن تعالج قضية مهمة تصب في موضوع الخيانة الثورية أو ما يعرف "بالحرْكة" والتي لا يكاد يخلو منها عمل أدبي كان موضوعه الثورة وهي رواية "المؤامرة" "لمحمد مصايف" التي دارت أحداثها في فترة الثورة التحريرية فهي « لا تؤرخ إلا للمرحلة الأولى من ثورة نوفمبر، تلك المرحلة التي تلت اِنحلال حزب الشعب والبيان ودخول أغلب أعضائها في صفوف جبهة التحرير الوطني »[2] ، وقد كان حضور الثورة فيها يرصد أيضا الصراع القائم بين الكتلة الوطنية والكتلة المستعمِرة، وذلك إلى جانب رواية "البزاة" "لمرزاق بقطاش" التي اِتخذت نفس المنحى في تجسيد الثورة.

« ولعل تردد صورة الثورة بهذا الشكل في كثير من الكتابات، أن يعود إلى الخضوع للخطاب السياسي الرسمي، حتى حال دون أن يتعمق الكاتب في سر التناقض وطبيعة الصراع، خلال الكفاح المسلح »[3] ، كما تبين أن هناك خصائص مشتركة تحكم مسار البطل في العمل الأدبي وتعطي صورة واحدة للثورة.

---

[1]- شايف عكاشة: مدخل إلى عالم الرواية الجزائرية، ص83.

[2]- المرجع نفسه، ص75.

[3]- مخلوف عامر: الرواية والتحولات في الجزائر، ص16.

وجسدت رواية "السعير" "لمحمد ساري" الثورة الزراعية بما فيها من تغيير فهي تعلن عن الشروع في تطبيق الثورة الزراعية، كما تشير الرواية إلى العمال الذين يتخذون الإضراب وسيلة لافتكاك حقوقهم.

ومنذ سنوات الستينات أخذت حالة الثورة المسلحة ببعدها المثالي تتلاشى تدريجيا لدى مجموعة من الكتاب وأصبحت الثورة تجسد على شكل اِنجاز جديد ومشروع كادحي، فتتحدث عن الإصلاحات التي قام بها الحزب الاشتراكي في الجزائر، وأهم من كتب عن الثورة كمشروع كادحي "عبد الحميد بن هدوقة" في روايته "ريح الجنوب" و "نهاية الأمس"التي تهدف إلى بناء قرية جديدة وتتحدث عن الانجازات التي تستتبعها ثورات أخرى اِقتصادية واِجتماعية فقد كان "عبد الحميد بن هدوقة" « يسهم في سير الثورة ويقوم بدوره في الصراع الحضاري والسياسي »[1] .

كما رسمت رواية "الزلزال" "لطاهر وطار"، و"العشق والموت في الزمن الحراشي" و"زمن النمرود" الثورة من هذا المنظور وأصبحت تنحو أكثر من غيرها نحو رسم خارطة الصراع الطبقي واِكتفت بإبراز « ظاهرها البسيط الذي هو صراع الإقطاعية مع الاشتراكية »[2]

وكل هذه النماذج التي تنتمي إلى مرحلة التأصيل تتجه إلى تصوير الثورة من وجهة نظر معينة دون التعمق في أسرارها أو رسم أحداثها بالتفصيل.

وغير بعيد عن ذلك نجد "عبد المالك مرتاض" يبتعد عن التصوير السطحي للثورة، ويتجه إلى أعماق المجتمع ليرسم لنا أجواء الحرب في روايته "صوت الكهف" ومعاناة السكان نتيجة الحرب، ومدى تفاعلهم مع الثورة، كما برزت شخصية زينب المرأة الثورية والتي وضح من خلالها دور المرأة في تفجير الثورة وإخراج السكان من صمتهم « وكانت النتيجة الحتمية أن اِلتف حولها أهل الربوة العالية، وفجروا جميعا الثورة »[3] ، فكان الكهف منبع الثورة ويحمي المجاهدين في صمت.

---

[1]- محمد مصايف: الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام، ص7.

[2]- شايف عكاشة: مدخل إلى عالم الرواية الجزائرية، ص25.

[3]- المرجع نفسه، ص50.

« ولقد عبر الأدب الجزائري قصة ورواية عن الحرب التحريرية أحسن تعبير، لكن في عالم واحد، هو عالم الريف حتى كأن الريف وحده، هو الذي خاض الثورة، ولكن المدينة ظلت طوال تلك الفترة نائمة لا تحيا لاسلبا ولا إيجابا، وقد ظل هذا نقطة ضعف في أدبنا حتى جاءت رواية "طيور في الظهيرة""لمرزاق بقطاش" فخرجت عن هذه العادة وأشعلت نار الثورة في المدينة »[1]

كما صورت رواية "رائحة الكلب" "لخلاص الجيلالي" ليلة الفاتح من نوفمبر المجيدة التي داهمت المدينة فجعلها على شكل زلزال حرك موازينها وغير مجرى الأمور « ويتجلى هذا بصورة خاصة في تداخل أحداث هذه الليلة بأحداث ليلة مرت عليها سنوات طويلة هي ليلة زلزال 1954 »[2]

فصورت هذه الرواية الثورة في المدينة وما اِستتبعها من تحولات، فانضمت بذلك إلى رواية "طيور في الظهيرة " التي رسمت الثورة في المدينة.

لكن يشير "شايف عكاشة " في كتابه مدخل إلى عالم الرواية الجزائرية « إلى أن طيور في الظهيرة نفسها قد ألبست المدينة الثائرة ثوب الريف ولعل ما يؤكد هذا أن بقطاش نفسه لجأ في هذه الرواية إلى الغابة ليحتمي فيها، ويوفر داخلها الحرية المطلوبة للأطفال الثائرين »[3]

واِستطاعت الروائية "أحلام مستغانمي " أن تجسد الثورة في روايتها "ذاكرة الجسد" وذلك من خلال شخصية "خالد بن طوبال" الذي فقد ذراعه أثناء حرب التحرير، وكانت "زهور ونيسي" تقدم صورة المرأة الثورية والمناضلة التي اِنخرطت في صفوف الثورة لتعمل مع المجاهدين.

أما فيما يخص الجيل الجديد في علاقته مع الثورة، فقد كانت علاقة متواصلة قائمة على البحث المستمر والتساؤل حول النقاط التي ما تزال غامضة في تاريخ الثورة، فقد كان هذا الموضوع حاضرا بقوة في المخيال الروائي الجزائري، فالعديد من الأدباء الذين ولدوا بعد الثورة، لم يعايشوا تفاصيل الثورة إلا أنها جسدت في رواياتهم، وما يؤكد أن علاقة هذا الجيل مع الثورة ما تزال مستمرة هي الروايات التي كتبها مجموعة من الكتاب الذين تفصلهم مدة زمنية طويلة عن اِندلاع الثورة.

---

[1]- شايف عكاشة: مدخل إلى عالم الرواية الجزائرية، ص61.

[2]- المرجع نفسه، ص58.

[3]- المرجع نفسه، ص61.

كما نجحوا في نقل صورة مشرفة من التاريخ النضالي للجزائريين، ولعل من أبرزهم "ياسمينة صالح" التي أبدعت في رواية "بحر الصمت" والروائية "شهرزاد كبير" في روايتها "مفترق العصور"، كما نجد الروائية "أمينة شيخ" في روايتها "أسفل الحب".

ومن الواضح أن الرؤية الثورية تختلف من كاتب لأخر وهي تتجسد على شكل رؤيتان، رؤية « أولت اِهتمامها إلى الاحتفال بالثورة وتمجيد مسيرة كفاحها وتقديمها في صورة مشرفة تبعث النخوة والاعتزاز في جيل ما بعد الاستقلال، بينما عمدت ثانيهما إلى نقد مسار الثورة النضالي، ومحاولة إدانته بالكشف عما اِرتكبته الثورة من أخطاء، اِنحرفت بها عن مسار الثورة النضالي »[1] وغيرهم كثير ممن اِختار الانضمام إلى صف الكتابة الثورية والتغني بأمجادها وتصوير أبعادها المختلفة، لتكون بذلك الرواية الثورية قد لعبت دورا حاسما في بلورة الهوية الوطنية في صراعها المستمر مع الاستعمار، فاقتربت من الواقع ولامست مواطن التأزم « مما جعل الكتابة تنحوا منحى رومنسياً أو تعليميًا أو شعاريًا يطفح بالروح الانتصارية »[2] .

والنتيجة التي نتوصل إليها أن « الأدب الروائي، حاول وقد اِستطاع في الكثير من نماذجه تغطية منجزات الثورة الوطنية، حتى ولو جاء ذلك متأخرا، وأن الاختلافات المطروحة حول كيفية هذه التغطية ترجع أساسا إلى التوجهات الفكرية والجمالية لدى كل أديب على حدة بالإضافة إلى التناقضات التي أفرزتها هذه الثورة »[3]

---

[1]- بن جمعة بوشوشة: الثورة الجزائرية بين الواقعي والمتخيل في الرواية الجزائرية المعاصرة، المساء، ع1012، الجزائر، 1988/12/28، ص11.

[2]- مخلوف عامر: الرواية والتحولات في الجزائر، ص14.

[3]- واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص95.

الفصل الثاني: الثورة الجزائرية في رواية الانطباع الأخير

المبحث الأول: ملخص الرواية

المبحث الثاني: تجليات ثورة التحرير في رواية "الانطباع الأخير"

المبحث الأول: ملخص رواية "الانطباع الأخير"

تعتبر رواية "الانطباع الأخير" لمالك حداد التي صدرت سنة 1958 أول الأعمال الروائية التي تناولت بالفعل أحداث الثورة المسلحة وصورت جوانب منها.

ترسم هذه الرواية مسار رجل عايش الثورة التحريرية وذاق من نبع كفاحها، وتألم لمصير بلاده بين أغلال الاستعمار.

في بداية الأمر كان (سعيد) بطل الرواية يعيش في فرنسا كمواطن فرنسي من أصل جزائري، فتقبله الفرنسيون، وحضي بمصاحبتهم، وكان يتمتع بمكانة مرموقة كونه مثقف ومهندس في بناء الجسور، تعلقت به فتاة تدعى (لوسيا)، كانت تُدرس في مدرسة شهيرة بالمدينة أحبته على الرغم من كرهها الكبير للجزائر، فكان (سعيد) منحلا داخل المجتمع الأجنبي إلا أن هذا الإحساس لم يعرف مسيرا طويلا لأن بلده الجزائر يعاني من غطرسة الاستعمار، فكان عليه أن يستغل وظيفته كمهندس لتلبية مطلب من الثوار لتفجير أحد الجسور بمدينة الجسور قسنطينة ومنع قوافل الجيش الفرنسي من اِستعماله لمرور الدبابات والأسلحة الثقيلة التي تستعمل لزرع الموت في القرى والأرياف، فكان هو الشخص المناسب في المكان المناسب، وذلك بإرشاد الثوار من الناحية التقنية إلى نقاط الضعف في الجسر، إلى جانب نسف الجسر، هناك حادث أصاب سعيد في الصميم هو حادث مقتل (لوسيا) برصاصة طائشة على حد علمه ، فأحدث جرحا عميقا في نفسه وكشف له شيئا لم يكن واضحا أمامه هو عبثية الحرب التي تخدم مصالح واِمتيازات المستوطنين وأنصارهم في فرنسا فبلده يتخبط في دوامة الانفجارات وصفارات الإنذار والدبابات التي كانت تحوم حول البيوت.

وقد كان الفاتح من نوفمبر سنة 1954 نقطة تحول في حياة سعيد خاصة وحياة الجزائر عامة، فقد اِنظم (سعيد) إلى صف الثورة إلى جانب أخيه (بوزيد) البطل الشهم المجاهد الذي كان يدافع عن وطنه في الجبال بأبسط الوسائل فجاهد رفقة مجموعة من المجاهدين .

ويأتي "مالك حداد" بوصف المعركة التي دارت في أحد الجبال بين الثوار والقوات الفرنسية، فيستشهد فيها (سعيد) أمام أنظار أخيه (بوزيد).

لينهي بذلك المؤلف روايته ويبين أن جهاد الشعب الجزائري عظيم وأن صيحة الفداء المتعالية في أرض الجزائر، لابد أن ترتفع مدوية، تعزُّ ولا تذلّ، تبين ولا تتوارى، لأنها غضبة الملايين، وهي بمثابة سياط تهوي فوق ظهور الظالمين.

المبحث الثاني: تجليات ثورة التحرير في رواية "الانطباع الأخير"

1- الشخصيات:

الشخصية هي الأنا والمركز والمحور، وهي صانعة الحدث فلا فعل دون فاعل ولا حدث بدون شخصية، وقد نعتبرها أيضا اِنعكاسا للفرد، للشعب، للأمة، للعلم ككل، والشخصية الرئيسية في رواية "الانطباع الأخير" هي شخصية (سعيد) .

أ. سعيد: هو شاب جزائري من أسرة متوسطة الحال على قدر لا بأس به من الثقافة، يجمع أفرادها التعاون والمحبة والوئام، لاشيء فيها يهيئها لأن تكون منبتا للحقد والشر.

هذا الشاب الجزائري الممزوج بالمشاعر والعقلانية، وكونه مهندس جعل الثوار يطلبون منه أن ينسف الجسر الذي أشرف على إنجازه، وهذا ما أوقع سعيد في حيرة شديدة من أمره بل وفي اِرتباك لا مثيل له مع نفسه وضميره « نام سعيد نوما ملعونا، كنوم ذوي المروءة، يجب أن يخرب الجسر »[1] لأن مهنته كمهندس كانت تقوم على بناء الجسور وليس على هدمها، لكن في المقابل كان واجبه الوطني كجزائري، يحتم عليه أن لا يبقى مكتوف اليدين أمام ما يحدث، وأن يسهم بدوره وحسب اِستطاعته في الكفاح الوطني الذي يخوضه أبناء بلدته ضد الاستعمار، وما هزّ في نفس سعيد أن الجسر الذي سينسفه كان أول مشروع هندسي يستند إليه ويشرف على تنفيذه، بعد تخرجه كمهندس ولذلك فقد كان الجسر بالنسبة إليه بمثابة مولوده البكر بل أكثر من ذلك لأن اِكتمال المولود، كما يذكر الروائي يحتاج إلى « تسعة أشهر »[2] في حين أن اِنجاز الجسر يتطلب من سعيد أكثر من سنة كاملة.

بالرغم من أن (سعيد) شاب جزائري إلا أن قلبه تعلق بفتاة من طرف العدو « لوسيا تحب سعيد ولكنها لا تحب بلده »[3] ولكن علاقته بها لم تستمر فقد « قالت الجريدة: اِستطاع الإرهابيين الفرار مخلفين قتيلين على البلاط من جانب قوات الأمن لا توجد أية ضحية ، لسوء الحظ، وأثناء الاشتباك

---

[1]- مالك حداد: الانطباع الأخير، ترجمة السعيد بوطاجين، منشورات الاختلاف، الجزائر،1989، ص29.
[2]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[3]- المصدر نفسه، ص33.

أصابت رصاصة طائشة امرأة فتية نقلت إلى العيادة بالمدينة في حالة خطيرة، أين أجريت لها عملية جراحية سريعة »[1] .

إلا أن (لوسيا) لم تنفذ من هذه الرصاصة فقد توفيت بعد العملية الجراحية، هذا الحادث هزّ كيان (سعيد)، وأيقظه من حلم جميل يناقض الواقع الحقيقي ووضعه في مواجهة أكبر المستعمرين شراسة « وحيدة وسط القبور، وحيدة هي الأخرى، ولكن، بنومك الفاضل اِسترجعت أحلامي، وأحب أن أنتقم لك من هذه الرصاصة الطائشة التي جعلتني أفقدك، وأحب أن أنتقم لك من هذه الحرب التي نهبت سلامي »[2] .

فقد جاء اليوم الموعود الفاتح نوفمبر الذي غير مجرى الحياة في الجزائر وحان الوقت لاستعمال لغة الحديد والنّار التي يفهمها الاستعمار، جاء القصاص الذي جازى فرنسا على ما اقترفته في حق الشعب الجزائري من ظلم واِضطهاد ومكر وخداع « الساعة التي نعيدها إلى أول يوم من نوفمبر، هذا الشهر الذي غير توقيت فصول الشتاء إلى الأبد، الساعة التي تحدّد الوقت في عرس الموتى، في ولادة الحقائق، الساعة التي كانت تعرف في أي ساعة قتل هذا الجزائري أو ذاك في أي ساعة مات هذا المجنّد أو ذاك، والآن وقد تعبت من الوقت، فإنها ذهبت لتستريح في عمق الوقت والبحر. لقد دقت الساعة »[3] .

ما كان لسعيد أن يفوّت هذا الحدث العظيم فرأسه مبتهج بأفكار الحرية والتضحية في سبيل الوطن، فكان كالجيش العنيد في ثباته، لا يعرف التقهقر والتراجع « جيل سعيد، جيل صانعي الجسور، جسور الإرادة القوية »[4] « كان جيل سعيد حلما حارا في صحراء مثلجة »[5]

---

[1]- مالك حداد: الانطباع الأخير، ص57.
[2]- المصدر نفسه، ص80.
[3]- المصدر نفسه، ص100.
[4]- المصدر نفسه، ص105.
[5]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

فكان سعيد يؤمن بعودة نور الحرية وأن الغد يكون أفضل من اليوم « أيها اللقلق، أيكون النهار جميلا غدا؟ إذا رفرف اللقلق جناحيه فإن غدا سيكون جملا، رفرفي أجنحتك أيتها اللقالق »[1] فسعيد لن يكون بعد هذا اليوم ولن يحظى بذلك الغد الجميل الذي سيحمل معه السلام فسعيد:

« ناقص الجزائر النّكرة

ناقص سعيد

أزال بوزيد الوشاح الذي كان على عنقه ، غطى بوزيد وجه أخيه عقدة خيط في موضعها، عقدة خيط معكوسة »[2] فبقتل سعيد لم يدرك المستبد أنه زاده عمرا طويلا، وشبابا دائما وخلوداً أبدياً وجمالاً شائعاً وطهراً ونقاء في هذه الدنيا الفانية وفي الدار الباقية .

ب. بوزيد: يمثل الرجل الجزائري في تلك الفترة، رجل قوّي الإحساس بالمسؤولية، يقدّر الحياة الأسرية يحب زوجته وطفلته، ويعمل بكل ما أتيي من قوة على إسعادهما، ولكنه كان في الوقت نفسه يرتب الأولويات، ويقدّر حب الوطن والتضحية في سبيل حريته، ومع ذلك فإن بوزيد لم يكن بالرجل الصارم الذي لا يرى الحياة إلاّ من وجهها الجاد، فقد كان يتحلى أيضا بروح الدعابة ويمزح أحيانا ولكن لم تكن دعابته لتنسبه الأمور الجادة ولا كان مزاحه حلوًا من حيث الهدف أو المعنى وهذا الجانب يؤكد فيه صفاته الإنسانية النبيلة التي ذكرناها له ولا ينفيها .

وفي هذا السياق يورد المؤلف حكاية ديك الأسرة الذي كان يخطئ التوقيت ويصيح قبل الفجر، فيجد بوزيد في ذلك مادة للمزاح ويطلب من أمه ذات « يوم قائلا: يجب أخذه إلى الساعاتي، ديكك هذا »[3]

---

[1]- مالك حداد: الانطباع الأخير، ص113.

[2]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[3]- المصدر نفسه، ص45.

غير أنه « منذ أول نوفمبر 1954، ظل بوزيد يردّد هذا الديك ليس غبيا كما نزعم. ليس هو الذي يتقدم نحن الذين نتأخر »[1] .

هذه الخصال التي تجمعت في (بوزيد)، نجد أخاه (سعيد) معجبا به رغم اِختلاف الطبائع، فبوزيد ميالاً بطبعه إلى العمل الميداني بعيدا عن التفلسف، كما تعكس شخصيته خصاله المذكورة بل لعل إعجاب (سعيد) بأخيه يأتي من هذا الاختلاف الموجود بينهما الذي يجعل الأخ الأصغر يحس أنه يفتقر إلى مزايا وأخلاق أخيه والتي من أهمها بلا شك، قوة العزيمة ووضوح الرؤية، وروح المبادرة، وهذا كان يحلو (سعيد) أن يردد دائماً أن (بوزيد) هو مثله الحيّ وضميره المرح، « إنه بوزيد الفرح، لأنه اِختار أن يكون فرحا »[2] « فلم يكن بوزيد يحب الشر »[3]

فمصير الجزائر والثورة التحريرية كان في أيدي هؤلاء الشباب (سعيد)، (بوزيد) وغيرهما كثير، وذلك بتفكيك القيود وقلع جذور الظلام الذي أسدله الاستعمار، والخروج إلى نور الأمان والاستقلال، فكانوا كالشمس لا يستطيع أحد أن يطفئ نورها كما « لاتستطيع الذئاب أن تفعل شيئا أمام النسور »[4]

ج. شريف: ذئب من جماعة الذئاب، باع وطنه في وقت كان أمس الحاجة إليه « أصبح شريف فرنسيا متوسطا »[5].

« اِستقر في الرفاهية المخزية للعادة، تعوّد على المقاطعات الفرنسية الثلاثة، لم يعرف المعاناة أبداً »[6] ، فقد سلط الراوي الضوء على هذه الجماعة من الخونة والتي ظهرت أثناء الثورة التحريرية وما مارسته من احتيال وغدر، ومحاولة إعاقة الثورة، تجنبوا الكفاح مع أبناء وطنهم، وتعاونوا مع العدو، فلبسوا لباس السلام تحت راية الخيانة .

---

[1]- مالك حداد: الانطباع الأخير، ص45، 46.
[2]- المصدر نفسه، ص103.
[3]- المصدر نفسه، ص109.
[4]- المصدر نفسه، ص44.
[5]- المصدر نفسه، ص48.
[6]- المصدر نفسه، ص70.

فهؤلاء قد التحقوا بصفوف من جعل الكون مسرحا للجرائم والآثام، وكرهوا الحرية وكشفوا العبودية، فليس في قلبهم رحمة ولا شفقة ولا إنسانية، وهم سبب البلاء « صباحات الخير التي ترد على صباحات خير شريف كانت باردة كالثلج الذي عاود السقوط. ولكنها لم تتسم بأناقة السلم »[1]

فهذه الجماعة تنبأ الراوي بمصيرها « ظن أنه مستعد لكل شيء، لم يكن رجلا شريرا، كان لامعنى ومفارقة ومغالطة في الوقت ذاته، الغرقى تجاوزتهم العناصر، وفي يوم ما سيدق التاريخ على باب الشريفين، لأنها ستدق بشكل قوي نوعا، سيتحدث الشريفين عن الضوضاء »[2] . فأنهار الدماء التي أراقها الاستعمار الغاشم ظلماً وعدواناً سوف تستحيل إلى طوفان عارم، يجرفه في مسيرته، وأن رياح الثورة المشتعلة ستأكله في عصفها، وعاقبته هي عاقبة كل الظالمين، دمار وموت وزوال.

غالبا ما نجد « اليأس يغلف حياة وتصرفات أبطال مالك حداد وتسير بهم الحياة من سيء إلى أسوأ وينتهي البطل بالانتحار »[3] إلا أن الشخصيات في رواية "الانطباع الأخير" نجدها نضالية ثورية ذات ميزات جهادية تفاؤلية بغد أفضل « ستعود الأغاني بعد الحرب، سيكون الطقس جميلا بعد الحرب، اللحظات الانفعالية للسلام حوالي البيت الهادئ، سيكون الطقس جميلا أقول لكم، اللقالق أكدت هذا، إنها لا تخطئ أبداً »[4]

---

[1]- مالك حداد: الانطباع الأخير، ص49.

[2]- المصدر نفسه، ص48.

[3]- سعاد محمد خضر: الأدب الجزائري المعاصر/ دراسة أدبية نقدية، منشورات المكتبة العصرية، الجزاير1967،ص

[4]- المصدر نفسه، ص 129،128.

د. لوسيا: كشفت شخصية لوسيا وهي « مدّرسة شهيرة بالمدينة منذ ثلاثة أعوام »[1] عن البعد الحضاري ويظهر ذلك في علاقة (لوسيا) و (سعيد)، فسعيد الذي ينتمي إلى حضارة عربية إسلامية، خاصة وأنه من مدينة تمجد العروبة والإسلام، وموطن العلماء والأدباء ورجال الإصلاح، مدينة العراقة والتاريخ، و(لوسيا) المنتمية إلى حضارة غربية متحررة ومنفتحة على كل شيء في الفكر والسلوك، إلا أن العلاقة بينهما علاقة حب وإخلاص ووفاء اِستمر هذا حتى بعد موت (لوسيا) .

أما فيما يخص علاقة (لوسيا) بالثورة فلم تكن ضدّ اندلاعها أو مساندة للثوار، فقد كانت بعيدة كل البعد عن الثورة التحريرية .

2- التصوير:

إن النصوص الروائية سجلت، أحداث التاريخ، وسيرت أغوارها، وعالجت هموم المجتمع فكانت مرآة تعكس ذلك وسجلت لوحات لبطولات شعبنا في مقاومة الدخيل المحتل، وتحفظ لأجيال لوحات حية عنها .

ولأن العرب عزموا منذ فجر نهضتهم الحديثة على التحرر من كل مستعمر في بلادهم، وتطهير الأرض العربية من كل دخيل مغتصب، فقد جادوا بالأرواح الرخيصة، واستعبدوا الموت في سبيل الحرية، وكسروا قيود العبودية، « كما كانت الأوضاع الاستثنائية التي عاشها الجزائري في ظل الاحتلال هموم أساسية للمبدعين الجزائريين إذ تجسدت في إبداعات تنبض بحس وطني عام، يستخلص من الماضي العبير، والخصال الحسنة والنضال الشهم لنقد واقع تعيس »[2]

---

[1]- مالك حداد الانطباع الأخير ص14.

[2]- محمد جاسم الموسوي: الرواية العربية النشأة والتطور، ص122.

لقد كان مالك حداد في رواية "الانطباع الأخير"، يصور لنا أحداث الثورة التحريرية في قمة مجدها، ومصرع (سعيد) من بين ملايين الشهداء الذين عطّروا بدمائهم الزكية أرض بلاد العروبة والإسلام .

وما يصوره الراوي في هذه الرواية من مشاعر المتحاربين وما يجُول في خواطرهم من أفكار وقلق وتوتر « الرجال يكزون على أسنانهم »[1] كما أضفت آليات الدمار التي يستعملها الجيش الفرنسي شيئا من القلق لدى المجاهدين « لكن طائرة المراقبة الصغيرة عيل صبرها هناك في الأعلى، إنها تدور، تدور، تغضب »[2] واستعرض بعض من هواجسهم ويتجلى ذلك في قوله « في أسفل الطريق تسمع الدبابات تتحدث خبط عشوائي. تطلق النار بلا تبصر، بلا قناعة. لم تشاهد الطائرة أي شيء بعد، لم تعثر على الطريدة بعد. على المنظار أن يبحث. على جهاز الراديو أن يعيل صبره. توارت أكمة في الجهة اليمنى. نثرت القذيفة كل شيء في الفضاء. لحسن الحظ لم يكن هناك أحد »[3] .

أمام هذا التفوق الساحق للقوات الفرنسية بفضل ما تمتلكه من أسلحة ثقيلة، ومن وسائل تكنولوجية عالية القدر والكفاءة « لكن جهاز الراديو، حدث أولئك الناس الذين لهم دبابات وطائرات، جهاز راديو أنذر أجهزة الراديو الأخرى، الطائرة الصغيرة المراقبة »[4]

ولم يكن بيد الثوار من سلاح حقيقي بعد الصبر والإيمان، إلا ما توفره لهم أرض بلدهم من حماية طبيعية، كالجبال والغابات والصخور والكهوف والمغارات، فتصبح الأرض في هذه الحالة الأم الحنون التي تضمهم إلى صدرها وترد عنهم غائلة تلك الأسلحة الفتاكة، بل إنهم يجدون في تقلبات الجوّ وتقلبات النهار والليل ما يوفر مثل تلك الحماية، فقد تمنحهم ظلمة الليل الأمان « الليل، صديق الناس الذين ليست لهم طائرات، ليس لهم دبابات »[5]

---

[1]- مالك حداد: الانطباع الأخير، ص127.
[2]- المصدر نفسه، ص122.
[3]- المصدر نفسه، ص121.
[4]- المصدر نفسه، ص127.
[5]- المصدر نفسه، ص122.

كما تصبح الصخور صديقة للمقاتلين لأنها تحميهم من نيران الدبابات وتمنعها من أن تدوسهم « أيتها الصخور، كني صديقة الذين ليست لهم طائرات ودبابات، أيها الليل! لا تتأخر »[1].

كما صور لنا الراوي حادثة مداهمة الشرطة لمنزل السيد (بلحسن) والد (سعيد) و(بوزيد) بحثا عن هذا الأخير الذي كان قد اِلتحق بصفوف الثوار. فقد هاجموا البيت في ساعة مبكرة من الصباح فتسلقوا سور الحديقة واعتلوا سطح المنزل، قبل أن يأخذوه بطريقة عنيفة ومفاجئة أفزعت أهله النيام، وجعلتهم يعيشون لحظات صعبة، لم تشفع لصاحب البيت عند المداهمة خدمته السابقة للعلم الفرنسي، ولا فقدانه ذراعه في معركة "فردان" دفاعا عن حرية فرنسا ولم يعقه ذلك في الاستجواب، ولا منع مستجوبيه من إظهار الشك في صدق أقواله، ولا حتى من السخرية منه. وواضح من عناية الكاتب بتصوير عملية المداهمة هذه أنه أراد أن ينقل صورة حية عن الممارسات اليومية الفضة التي كانت تتعامل بها قوات الشرطة والجيش الفرنسي مع الجزائريين حيث كانت تنتهك حرمات بيوتهم في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار « طرقوا الباب في الثالثة صباحا »[2] فتعتقل الرجال « حتى الأطفال في المدرسة التحضيرية لم يسلموا من هذه الممارسات »[3] وتروع النساء والشيوخ، وقد تلحق الإهانة والأذى حتى ممن خدم الدولة والأمة الفرنسية وقدم تضحيات في سبيلها مثل السيد (بلحسن)، فحرم الشعب الجزائري من سكون الليل وسحره وهو في بلده بسبب سياسة حظر التجوّل « العاشرة هو موعد حظر التجوّل، لا يمكن أن ترى في المدينة إلا الأوروبيين والعسكريين إنهم الوحيدون المؤَمنون من عقاب حملة غير متوقعة في البرنامج »[4] .

كما نجد الراوي يبدي تعاطفه مع أولئك الشباب الغربيين الذين كانوا يجندون رغما عنهم ويدفعون بهم إلى الموت مثل (جان فرانسوا)، فهم أيضا رجال لهم مشاعر وأحاسيس، ولهم أباء وأمهات يعيشون يوميا حالة القلق عليهم وينتظرون بفارغ الصبر نهاية الحرب، وقد لا يرجع بعضهم إلى ذويهم إلا في صندوق مثل ما حدث (لجان فرانسوا) « جثة صغيرة حارة وحزينة،

---

[1]- مالك حداد: الانطباع الأخير، ص122.
[2]- المصدر نفسه، ص43.
[3]- المصدر نفسه، ص41.
[4]- المصدر نفسه، ص9.

أخ لوسيا، جان فرانسوا، أحد المستدعيين للجندية، أحد المستدعيين الذين وجب استعادتهم إلى الله وإلى البشر »[1] ، فالمؤلف هنا يرى أن مسؤولية الحرب لا تقع إلا على عاتق المستفيدين منها، من المستوطنين المستغليين، ومن المتحالفين معهم في فرنسا، أما الشباب الذين يخضعون الحرب من الطرفين، إنما هم ضحايا هؤلاء وأولئك.

ولا يفوت للراوي أن يتحدث عن الصبر الجميل الذي يتحلى به أبناء وطنه خاصة النسوة والأطفال في ظل الظروف المزرية والأوضاع الصعبة « يفهم من خلال الإقرار العام للنسوة المسنّات بأنه من السهل أن نستنتج بأن الجزائر آهلة بعشرة ملاين إله، ورغم الضغط العصبي، ورغم عيني أمه المحاطتين بزرقة، لم يستطع سعيد منع نفسه من التبسم. قبل قليل سلاّه التلاميذ، طمأنوه. والآن سلتّه النسوة وطمأننه أكثر، تاريخ صبر طويل يقرأ في أوردتهن المدماة، في أصواتهن النائحة التي لا تشتكي أبدًا. »[2]

3- الزمن الروائي:

اِهتم النقاد والدارسون بفكرة الزمن في العمل الأدبي، كما اِهتموا بفكرة المكان أو الحيز، فالعلاقة بينهما وثيقة، فإذا كان المكان لا يبذر جنينه إلا في رحم الزمان فإن « الزمن لا يجوز له أن ينفصل عن المكان إلا إجرائيا »[3]، الكل تحت سطوته وجبروته،الحدث، الشخصيات، الحبكة، الحوار.

« إن الزمن الأدبي (...) زمن متسلط شفاف متولج في أشد الأشياء صلابة ومتحكمة في أبعد الأمور »[4]

---

[1]- مالك حداد: الانطباع الأخير، ص109.
[2]- المصدر نفسه، ص44.
[3]- عبد المالك مرتاض: القصة القصيرة المعاصرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1990، ص228.
[4]- المصدر نفسه، ص288.

فهو المحرك الأساسي للعملية الإبداعية « لا بوصفه مجرد خلفية جامدة لابد منها لأجل سيرورة الحد (...) بل صار (...) ينظر إليه جزءًا حيوياً وضرورياً من أجزاء البنية الأساسية للعمل القصصي، لا يقل أهمية عن (...) سائر الأجزاء الفنية الأخرى »[1] .

اِتخذت رواية "الانطباع الأخير" وجهة زمنية أساسية تتعلق بمسار الثورة التحريرية والتي كانت البداية الفعلية التي تؤرخ لكل الأزمنة في الرواية وذلك ضمن مرحلتين أساسيتين هما ما قبل اِندلاع الثورة التحريرية واِنضمام (سعيد) إليها وما بعد اِندلاع الثورة التحريرية التي تركت أثراً بالغا في مجريات الأحداث من جهة وترتيب الأزمنة من جهة أخرى لتكون بذلك الثورة التحريرية هي البداية الفعلية لجوهر الأحداث « الساعة التي نعيدها إلى أول يوم من نوفمبر »[2] وكل التواريخ التي ذكرها لم يعد لها أي معنى أمام « نوفمبر غيرت مجرى الحياة وكنت - نوفمبر- مطلع الفجر »[3] .

ركز الراوي على هذا التاريخ وأكسبه معنى خاص في الرواية وحضيت الثورة بأهمية كبيرة لأنها النقطة الزمنية التي كان يبحث عنها الراوي ويهدف إلى اِطلاع القارئ عليها لأنها ليلة عظيمة في قلب كل جزائري، ولأن ليلة نوفمبر بزوغ لفجر التحرُّر، كما كانت نقطة تحول في حياة البطل الذي تفاعل مع الحدث الثوري، مما جعل الراوي لا يولي أي أهمية لباقي الأزمنة، فأسقطها من قاموسه والدليل على ذلك قوله « في حين أن الجزائر اِبتدأ الحساب في أول يوم من الشهر الحادي عشر من سنة ألف وتسعمئة وأربعة وخمسين »[4] .

إلا أن هذا لا يخفي الأزمنة الأخرى التي ذكرها الكاتب في الرواية والتي تتفرع بشكل مباشر من اِندلاع الثورة التحريرية أو يمكن عدها التمهيد الفعلي لاندلاع الثورة، فذكر أحداث 8 ماي 1954

---

[1]- خثير ذويبي: سيميولوجيا النص السردي (مقاربة سميائية لرواية الفراشات والغيلان)، ط1، دار هومة رابطة أهل القلم، الجزائر، ص22.

[2]- مالك حداد: الانطباع الأخير، ص102.

[3]- مفدي زكريا: قصيدة مطلع الفجر.

[4]- مالك حداد: الانطباع الأخير، ص101.

التي اشتقت منها الثورة التحريرية وهذا ما يظهره المقطع التالي « الشمس الجحيمية ليوم 8ماي 1954 »[1] ، ونلاحظ أن زمن اِندلاع الثورة التحريرية وأحداث 8ماي 1954 لهما أهمية كبيرة للأزمنة في الرواية وهذا ما يلخصه هذا المقطع « في أول نوفمبر مرض المتماثلون للشفاء من جديد وفي 8 ماي ساءت حالتهم »[2] فهذا التاريخ يوم الدمعة والدم وطريق للثورة، وزمن الحرب كما يقول الراوي « زمن يصبح أكثر طولا بسبب الحرب، نجوم تأبى غلق عيونها في سهر ليل الحرب »[3].

4- الفضاء المكاني:

المكان أو الحيز « مصطلحان اِختلف النقاد والدارسون في اِستعمالهما ، فيستعملونهما بمعنى واحد أحيانا ويفرقون بينهما أحيانا أخرى من حيث درجة إفادة المعنى، ويرون أن المكان ينحصر في معنى الحيز الجغرافي الحقيقي، في حين أن الحيز يتسع ليشمل كل فضاء خرافي أو أسطوري أو كل ما يند عن مكان محسوس كالخطوط والأبعاد والأحكام والأثقال والأشياء المجسمة مثل الأشجار، والأنهار »[4] وما تحتويه هذه المظاهر الحيزية من حركة أو تغيير.

وجوانب الحيز كثيرة « كتأثيره في تكوين الشخصيات وتطوير الحدث والصراع والحبكة، ناهيك عن أن المكان ليس مجرد إطار للأحداث والشخصيات، وإنما هو عنصر حي فاعل في هذه الأحداث وفي هذه الشخصيات إنه حدث وجزء من الشخصية »[5] ولأنه « هو المجال الذي تجري فيه أحداث الرواية »[6] فمالك حداد اِتخذ في روايته "الانطباع الأخير" من مدينة قسنطينة مسرحا رئيسيا لأحداث روايته وهي المدينة التي ولد فيها وعاش طفولته وشبابه فيها، وأحبها كثيرا وتغنى بها في أشعاره، وما لهذا الاختيار من علاقة بالميزة التي اشتهرت بها مدينة قسنطينة من

---

[1]- مالك حداد: الانطباع الأخير، ص105.
[2]- المصدر نفسه، ص32.
[3]- المصدر نفسه، ص13.
[4]- عبد المالك مرتاض: تحليل الخطاب السردي، (معالجة تفكيكية، سميائية، لرواية زقاق المدق)، ص245.
[5]- مصطفى تواتي: دراسات في رواية نجيب محفوظ، ط1، الدار العربية للنشر، تونس، 1986، ص85.
[6]- حسب منسي: فلسفة المكان في الشعر العربي،(قراءة موضوعاتية)، منشورات اتحاد الكتاب، دمشق،2011، ص 7.

الناحية الدلالية والجمالية ألاَ وهي الجسور حتى لقبت بسبب ذلك بمدينة الجسور، فقد طبع الحرب هذه المدينة العريقة أثر على هدوئها وعلى جمالها الطبيعي الأخاذ « لا توجد أي مدينة في العالم تتقن الحديث مثل قسنطينة، إنها صخرة الحب الكثيرة. هنا قلب الغضب قسنطينة »[1] « المطر ينساب في الشوارع التي لا تمشط أبدا مئة ألف ذكرى، في الشتاءات تتحدث عن شهر ماي رائعة الروائع حيث تعشش اليمامات، حيث تستشيط الغربان غيظا، يجب معرفة قسنطينة في الساعة التي تدور فيها الشمس أكثر من لحظة إنها تحدّ، إنها مهد، ثم قاعدة تمثال وتحد، إنها سد من الحجارة، إنها قلب قيتارة (...) يجب رؤية قسنطينة تتدفأ تحت الشمس، هذه المدينة كبيرة مثل قطعة خبز (...) إنها مدينة قوية عند النظر إلى جبل الوحش، إلى غابة الذئاب نكشف عن المنطقة الساهرة بالضاحية. »[2] فهي مدينة فوق العادة بتشعباتها وتفاصيلها، فهي الفرح والحزن هي الأمل، وهي الحديثة وهي الماضي الجميل والحاضر المرّ والمستقبل المجهول « قسنطينة كل شيء قديم وكل شيء يحيا »[3] حولت جبالها إلى براكين يكتوي بنارها الأعداء فما من شك في أن للجبال قيمة كبيرة في تاريخ الثورة التحريرية باعتباره المكان الذي ينطلق منه الثوار والمجاهدين إبان الثورة التحريرية وهو المكان الذي يحتضنهم ويمارسون فيه سيادتهم وسلطتهم وتجمعهم غاية واحدة وهي تحرير الوطن ويرمز إلى مبادئ عليا من التضحية بالنفس والنفيس وهيمنته للاحتلال الفرنسي، وهو المكان الذي تكتسيه دلالة إيديولوجية ثورية واضحة، وهو ما يمكن أن يكون دليلا قاطعا على التقارب بين النص الروائي والتاريخ الموثق.

[1]- مالك حداد: الانطباع الأخير، ص40.
[2]- المصدر نفسه، ص40،41.
[3]- المصدر نفسه، ص55.

كما جعلت قسنطينة من مغاراتها وكهوفها، معاقل وحصون يحتمي فيها الثوار في صراعهم مع الغزاة، وصخورها الأشم تتحداهم أن يوقفوا زئير القدر « الموت في راحته، الرصاصات ترش الصخور كأنها حجارة في الماء »[1].

ذكر الراوي عدة أماكن أخرى قامت فيها الثورة كسكيكدة، شرشال، القبائل، كما تغنى بجبل الأوراس باعتباره الجبل الذي شهد على اِنطلاق أول رصاصة تعلن عن بداية الثورة « رقص جبل الأوراس »[2] « جبل الأوراس يتزين قبل أن يمثل أمام الجزائر »[3]

5- اللغة و الأسلوب:

تتربع اللغة على عرش حياتنا، فتشكلنا كما تشاء وكما تريد، وتصنع ما تريد وما يحلو لها، ترفع أقواما وتذل آخرين، ولا نملك نحن أمامها إلا أن نقف برهة في محاربها المقدسة، نقدم لها قرابين الوفاء والولاء إنّها بحق « سيدة العلاقة (...) ومحركة العالم (...) وكاشفة الوجود إنها تعطي وتنمح وعلى الإنسان أن يسكن في بيتها فيحرسه ويرعاه »[4] فهي تكشف لنا عن حقائق ذواتنا وحقائق ما يحيط بنا إنها على حد قول هيدجر « هي التي تمنح الإنارة فيظهر الوجود (...) فيتجلى أو يطيب ويحتجب. »[5] « الجمل تتركب من الكلمات، جمل بهيئة متأنقة في لباسها، جمل منشاة، جمل بأحذية ملمّعة، جمل تضع أحمر الشفاه، جمل تجعلك تقشعر، جمل تفرض عليك الوقوف مستعدا، جمل تفرض عليك كثيرا من أحسنت، جمل بثرثرة، بكلام لا معنى له»[6]

---

[1]- مالك حداد: الانطباع الأخير، ص131.
[2]- المصدر نفسه، ص98.
[3]- المصدر نفسه، ص106.
[4]- عدنان بن ذريل: اللغة والأسلوب، دار الأفواد، دمشق،1980، ص23.
[5]- المرجع نفسه، ص24.
[6]- مالك حداد: الانطباع الأخير، ص69.

فلغة الروائي مسألة من الصعب ضبط وتيرة توجهاتها لأن لكل عمل خصوصيته، فقدر نجاح الفنان في التعامل مع اللغة، بقدر ما يتمكن من فهم شخصياته ووعيه وثقافته، فلغة مالك حداد في رواية "الانطباع الأخير" جاءت نسيجا مترابط الأجزاء، لا يمكن التصرف بالتقديم أو التأخير، كما أن الأفكار واضحة لا غبار عليها، تدرك بيسر وسهولة، فالراوي عرف كيف يعطي أفكاره حقها من التوضيح، وهي عميقة عمق النفس الثائرة الجياشة بالحماسة الوطنية، أفكار يتردد صداها في جميع العقول، وتتجاوب معها كل الضمائر الحية، فالناس في مختلف بقاع الأرض وعلى مرّ التاريخ، يشعرون بمرارة الظلم والاستعباد ويكرهون الاحتلال الغاشم المستبد.

فالراوي ينطلق من موقف ذاتي يمس شعوره الشخصي، ثم لا يتوقف عند هذا الحدّ بل يتجاوزه إلى أن يُكسب تعبيره عن عواطفه وعواطف شعبه بصبغة إنسانية عالمية، بحيث يشعر بها كل قارئ أو سامع عاش نفس الظروف.

ولأن مالك حداد عاش الثورة التحريرية، كانت عاطفته صادقة، يبدو من خلالها وطنيا مخلصا وثائرا جريئا، رأى في هذا العالم المضطرب أبشع صور الظلم والاستبداد، وفظائع الطغاة المستعمرين وعانى من ويلاتهم، ومن مظاهر العبودية.

فعبر عن شعوره تعبيرا جليا أصيلا، ومن ثم نجح في نقل إحساسه إلى نفوسنا وجعلنا نعيش معه الحالة الشعورية التي كان يعاني منها الشعب، ويُظهر عمق الراوي في غوصه إلى حقائق الأشياء والصدور منها وبقناعة أن الثورة التحريرية لابد أن تنتصر، فالواقع يقرر دائما أنه لا يضيع حقّ الشعب المظلوم « لأجلك يا حرية لأجلك، لا تنسى »[1] ويتجلى ذلك أيضا في تحليله لقدرة الإنسان على الثبات والتجمد أمام المحن من أجل حقوقه وكرامته « الرجال يحاربون، الممرات تحارب، الينابيع والسحب تحارب، إنها حرب ذات حدود مبهمة بألف وألف مركز ثقل»[2]

[1]- مالك حداد: الانطباع الأخير، ص113.
[2]- المصدر نفسه، ص11.

الخاتمة

لقد كانت رواية "الانطباع الأخير" من بين النماذج التي حملت في مضامينها قضايا تنبع من رحم الواقع المتغير، وهي تحمل بين طياتها صوت الأديب وآلام الشعب الجزائري جراء الاستعمار الأجنبي الذي عمل على طمس الهوية الوطنية، نتيجة لذلك تسلقت رواية "الانطباع الأخير" أعلى المراتب في الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية، وبلغ صوتها جميع الأقطار العربية والعالمية، بحكم أنها كُتبت باللغة الفرنسية ثم تُرجمت إلى اللغة العربية، وذلك على يد كاتب جزائري أحسن تربيتها ورعايتها.

❖ اِستطاعت رواية "الانطباع الأخير" أن تحكم قبضتها بين الفنون الأدبية لارتباطها بالظروف السياسية والاجتماعية التي كانت تفرضها الثورة التحريرية.

❖ كان الروائي مالك حداد مرتبط بالواقع الجزائري ويعيش تحولاته فعمل على نقل الثورة الجزائرية في إبداعاته، وساهم في إثراء هذا الواقع الثوري باللغة الفرنسية حتى يعرف العالم بنضال شعبه وبطولاته .

❖ عرفت الجزائر ثورات عديدة نتيجة الاستعمار الفرنسي ساهمت بشكل أو بأخر في تحديد مسار الرواية الجزائرية التي اِقتحمت الواقع ونهلت منه موضوعاتها.

❖ كانت رواية "الانطباع الأخير" بمثابة وعاء يحوي القضية الوطنية، فكشفت عن الجوانب الخفية للاحتلال، وعبرت عن السياسة الشنيعة التي مارسها ضد الشعب الجزائري من قتل وترهيب، وتدمير البيوت، وحظر التجوّل، وإعدام المجاهدين، والقصف بالطائرات، وغيرها من الأساليب التي رافقت الثورة.

❖ اِتسمت لغة مالك حداد في رواية "الانطباع الأخير" بالعاطفية نظرا لحساسية الموضوع وتعلقه بالهوية الوطنية التي أنجبت منه أديباً متمكناً.

❖ من خلال رواية "الانطباع الأخير" يتضح لنا أن الأديب وجد فيها الشكل الملائم للتعبير عن الثورة الجزائرية وآماله الكبيرة في الاستقلال من جهة، ومن جهة أخرى لعب دورا هاما في قيام

الثورة التحريرية وتحريض الشعب على المقاومة، ونقل الصورة الحقيقية للاستعمار الفرنسي، فكانت المضامين الثورية حاضرة بكثرة في رواية "الانطباع الأخير"بشكل خاص والرواية الجزائرية بشكل عام.

لقد اِكتشفنا من خلال تحليلنا أن المضامين الثورية التي تناولتها الرواية الجزائرية في فترة السبعينات تختلف من كاتب لأخر، إلا أنها تتفق في كونها تمجد التاريخ الجزائري العريق والثورة التحريرية المجيدة، وتساهم في رسم الواقع الثوري داخل النص الروائي بكيفيات مختلفة تسهم بشكل كبير في التعريف بالثورة المجيدة ، وتضفي النص السردي قيمًا جمالية فنية جديدة، فكانت الرواية الجزائرية متفاعلة بشكل كبير مع الثورة التحريرية ومرآة عاكسة للأوضاع السائدة في تلك الفترة.

الملحــق

أ. سيرة مالك حداد:

ولد "مالك حداد" في 5 جويلية 1927 في مدينة قسنطينة وكان القدر قد أراد لهذا اليوم أن يكون حدثا لأكثر من واقعة، لأنه اليوم الذي بدأ فيه اِحتلال الجزائر في عام 1830 وهو اليوم الذي نالت فيه الجزائر حريتها عام 1962، وفي قسنطينة تلقى علومه الابتدائية، ونال الثانوية (فرع الفلسفة والأدب) كما حصل على شهادة (أهلية التعليم الابتدائي) ثم سافر بعد ذلك إلى فرنسا لمتابعة دراسته الجامعية، نال إجازة في الحقوق وعاد إلى وطنه وكان شاهدا على مجازر 8ماي 1954، وقد كان لهذا الحدث وقع خاص في حياة "مالك حداد " فاعتبره ولادة حياة بالنسبة إليه وقد كانت ثورته تتوقد من خلال مزاولته لعمله في الصحافة الأدبية إلى جانب مهنته في المدرسة الثانوية .

ولمّا قامت ثورة نوفمبر، كان "مالك حداد" واحدا من أولئك الثوار، وعضوا في جبهة التحرير الوطني، وذات يوم اِقتحمت مجموعة من الجيش الفرنسي منزله وتضطره إلى النفي والتشريد فغادر الجزائر متجها إلى أوربا، حاملا في يمينه كتاب الثورة، وفي فكره هم الجزائر، فشارك في الصحافة الأجنبية ودافع عن عروبة الجزائر، ومثل جبهة التحرير في مؤتمر الكتاب الإفريقي الأسيوي الذي أنعقد بمدينة طوكيو عام 1961 وألقى عددا من المحاضرات عن الأدب الجزائري في كل من الهند ومصر وسوريا ولبنان وروسيا والصين وغيرها من البلدان.

وبعد اِستقلال الجزائر عاد إلى أرض الوطن وتابع رحلته في الصحافة إلى أن عين في أفريل 1968 مديرا للثقافة بوزارة الثقافة والإعلام، ثم مستشارًا مكلفا بالدراسة والبحث في مجال الكتابة باللغة الفرنسية، إضافة إلى إشرافه على تحرير مجلة "آمال" ثم أنتخب أمينا عاماً لإتحاد الكتاب الجزائريين، وداهم المرض "مالك حداد" وبدأ الصراع بين الأديب وبين الداء، وفي صبيحة سوم الجمعة 2جوان 1978 اِنتهت رحلة "مالك حداد" الدنيوية فنقل جثمانه إلى قسنطينة ودفن فيها.

ب.أعماله:

لقد ترك "مالك حداد" مجموعة من الأعمال الأدبية سواء في الشعر أم الرواية وكان إنتاجه منصبا حول قيام الثورة التحريرية والاستقلال، وقد صدر له في الشعر:

- الشقاء في خطر.
- باريس1956.
- واسمع وسأناديك 1961.

أما في الإبداع الروائي أهم ما صدر له:

- الانطباع الأخير1958.
- سأهبك غزال 1959.
- التلميذ والدرس1960.
- رصيف الأزهار لم يعد يجيب 1961.

وفي الدراسة صدر له:

- الأصفار التي تدور في الفراغ 1961.
- الحرية ومأساة التعبير لدى كتاب الجزائر 1961.

كل ذلك يؤكد أن "مالك حداد" ظاهرة فريدة من نوعها، خاصة في الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، وقد تجلت بوضوح في قدرته على صياغة الأحداث وتصوير الواقع القومي بحيثياته المتغيرة.

فهرس الموضوعات

الفهرس

المقدمة.....أ

المدخل.....11

الفصل الأول:

نشأة الرواية الثورية

المبحث الأول: الرواية الثورية.....17

1- عند الغرب.....**17**

2- عند العرب.....**19**

المبحث الثاني: الرواية الثورية في الجزائر.....22

1- باللسان الفرنسي.....**22**

2- باللسان العربي.....**29**

الفصل الثاني:

الثورة الجزائرية في رواية "الانطباع الأخير"

المبحث الأول: ملخص الرواية.....38

المبحث الثاني: تجليات ثورة التحرير في رواية الانطباع الأخير.....40

1- الشخصيات.....**40**

2- التصوير.....**45**

3- الزمن الروائي.....**48**

4- الفضاء المكاني.....**50**

5- اللغة والأسلوب.....**52**

الخاتمة.....**55**

قائمة المصادر و المراجع.....**58**

الملحق.....**63**

فهرس الموضوعات.....**66**